الدكتور حسّان حلاّق

الامام

عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي

و

السلطان

الملك الناصر صلاح الدين الايوبي

الدار الجامعية
بيروت
١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م

الإمام والسلطان

الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي

(٨٨ ـ ١٥٧ هـ ، ٧٠٧ ـ ٧٧٤ م)

و

السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي

(٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ ، ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م)

الدكتور حسان حلاق

الدار الجامعية

جميع الحقوق محفوظة

١٩٩٧

الدار الجامعية

الإهـداء

إلى أبناء بيروت المحروسة

إلى أحفاد الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه)

إلى أحفاد السلطان صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله)

إلى مدينة التضحية والعطاء

إلى مدينة الرباط والوفاء

حسان حلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (٨٨ ـ ١٥٧ هـ ، ٧٠٧ ـ ٧٧٤ م) علم من أعلام الفقه والشرع والجهاد والرباط في بيروت المحروسة وفي بلاد الشام وسائر الأمصار الإسلامية. وقد تميَّز الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه) بتوأمته بين العلم والجهاد في ثغر من أهم ثغور بلاد الشام، أعني به ثغر بيروت، فمن خلاله أسهم في عطاءاته العلمية والفقهية والجهادية، ودافع عن المظلومين من المسلمين والنصارى على السواء. ومع مرور الزمن بات الإمام الجليل رمزاً للعالم العامل في سبيل دينه ووطنه وأمّته، وبلغ شأواً هاماً بحيث بات مرجعاً أساسياً لجميع الشاميين والمسلمين في العصر العباسي يدافع عن حقوقهم، رافعاً لواء الحق والحرية والعدالة، وبوفاته عام ١٥٧ هـ ـ ٧٧٤ م طويت صفحة مجيدة من صفحات التاريخ العربي والإسلامي، التي ما نزال نستلهم مجدها وصفحاتها الناصعة.

أما السلطان الملك الناصر لدين الله صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ ، ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م) فقد كان بدوره علماً من أعلام الجهاد والرباط في سبيل الدفاع عن الأراضي العربية والإسلامية، وفي سبيل تحريرها من ربقة الاحتلال الافرنجي. وانطلاقاً من ذلك فقد استطاع أن يحقق الانتصارات، وأن يحرِّر الأراضي المقدَّسة الشريفة، وأن يعيد الطمأنينة إلى العالم الإسلامي. لقد آمن صلاح الدين الأيوبي بالوحدة الإسلامية باعتبارها العامل الرئيسي لتحقيق النصر، لهذا عمل على وحدة مصر وبلاد الشام، وهذا مما دعا الكثير من الملوك والزعامات والرؤساء من بعده للاقتداء به، والسعي لإعادة الوحدة بين مصر وبلاد الشام. وكان صلاح الدين الأيوبي بدوره من المشجعين للعلماء وللعلم، ومن المعجبين بعلم الائمة والفقهاء ومن بينهم الإمام الأوزاعي رغم الفارق الزمني بينهما. وباعتبار أن الإمام الأوزاعي والسلطان صلاح الدين الأيوبي من أبرز الأعلام المسلمين، يجمع بينهما الرباط والجهاد

والسعي نحو العلم والعلماء، فقد حرصت أن أقدِّم للقارىء العربي هذه الدراسة عن هذين العلمين، لعلها تسد فراغاً في ميدان الدراسات العربية والإسلامية، متمنياً من أجيالنا الصاعدة أن تتخذ منهما «القدوة الحسنة» سواء في مجال النضال والرباط والجهاد والجرأة، أم في مجال العلم والفقه والمعرفة.

وقد حرصت أيضاً على أن أضم إلى كل دراسة من هاتين الدراستين ملحقاً الأول هو سيرة الإمام الأوزاعي الموسومة باسم «محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي»، وملحقاً ثانياً عن مزايا السلطان صلاح الدين الأيوبي مستقاة من سيرته التي ألفها معاصره وقاضيه ابن شداد والمسماة «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، لما لهذين الملحقين من أهمية على صعيد فهم ودراسة الإمام والسلطان بشكل بارز ومفصل، ولإجراء المقارنة في الجوامع المشتركة، والصفات الأساسية والبارزة لكل منهما.

بيروت المحروسة في ١٢ ربيع الأول ١٤١٧ هـ
٢٧ تموز (يوليه) ١٩٩٦ م

(*) فيما يختص بمصادر الدراسة فإننا سنكتفي بذكرها حيثما وردت في الهوامش.

الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي(*)

(٨٨ - ١٥٧ هـ، ٧٠٧ - ٧٧٤ م)

إمام بيروت والشام والأندلس

(*) (بحث مقدَّم في المركز الإسلامي - عائشة بكار - بيروت في الندوة العلمية التي أقيمت احتفالاً وتكريماً ووفاء للإمام الأوزاعي في ٢٩ ذي الحجة ١٤١٤ هـ - الموافق في ٩ حزيران (يونيه) ١٩٩٤ م).

الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي

(٨٨ ـ ١٥٧ هـ ، ٧٠٧ ـ ٧٧٤ م)

إمام بيروت والشام والأندلس

هو الإمام عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي (٨٨ ـ ١٥٧ هـ ، ٧٠٧ ـ ٧٧٤ م)، من مواليد بعلبك، وعاش في البقاع في قرية الكرك البقاعية يتيماً فقيراً، ثم انتقل مع أمه إلى بيروت. وكان قبل ذلك قد عاش مع عائلته في دمشق، وتنقل بين حماه وحلب وقنسرين وسواها.

أطلق عليه اسم الأوزاعي نسبة إلى الأوزاع وهي قبيلة يمنية حميرية من بطن ذي الكلاع من قحطان، نزل أفراد منها في دمشق قرب باب الفراديس، وقد أطلق على المنطقة التي نزلوا فيها اسم قرية «الأوزاع». وقيل إن هذه المنطقة كانت تعرف باسم «الأوزاع» قبل نزول تلك القبيلة فيها. ومن المؤكد أن عمرو بن يحمد والد الإمام الأوزاعي قد نشأ في قرية «الأوزاع»، ثم انتقل فيما بعد إلى بعلبك حيث رزق فيها بابنيه عبد الله وعبد الرحمن. وقد أطلق لقب «الأوزاعي» على من اشتهر في تلك الفترة لنزوله في «الأوزاع» ومنهم: نَهيك بن يَريم الأوزاعي وأبو أيوب مغيث الأوزاعي[1].

---

(١) انظر: د. صبحي المحمصاني: الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية، ص ١٧، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٨. الشيخ مروان محمد الشعار: الأوزاعي إمام السلف ص ١١ ـ ١٢، دار النفائس ـ بيروت ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م. للمزيد من التفصيلات انظر: الشيخ عبد الغني النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، ص ٨٤ ـ ٨٥ تقديم وإعداد: د. أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٦. الشيخ طه الولي: عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام وإمام أهل الشام، ص ٢٧ ـ ٣٠ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م.

انظر أيضاً: عبد العزيز سيد الأهل: الإمام الأوزاعي فقيه أهل الشام، ص ١٩، القاهرة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م (التعريف بالإسلام يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة).

قال العباس بن الوليد البيروتي: سمعت محمد بن عبد الرحمن السلمي البيروتي في وصف الإمام الأوزاعي قال: «رأيت الأوزاعي وكان فوق الربعة، خفيف اللحية، به سمرة، وكان يخضب بالحناء». ولم يخضب الأوزاعي شعر رأسه ولحيته إلا بعد أن غزاه الشيب. وكان يلبس الطيلسان الأخضر، ويلبس العمامة ويحض عليها وخصوصاً أيام الجُمع. وكانت عِمّته مدوّرة بلا عَذَبَة (بلا خيوط مدورة خلفها). وقال أبو زرعة: «إن البعض رآه يضع قلنسوة سوداء في أيام ابن سراقة»[٢].

لم يذكر المؤرخون والفقهاء والعلماء شيئاً عن والد الإمام الأوزاعي باستثناء ما أشار إليه الإمام نفسه، ولا عن والدته أو أخواله، غير أنهم أشاروا إلى أنه كان له عم واحد هو «أبو عمرو السيباني». والثابت أن الإمام تزوج أكثر من امرأة استناداً إلى قوله «فارقت نسائي وأعتقت رقيقي». أما أولاده فقد رزق بثلاث بنات وصبي واحد. إحدى البنات هي «واحة» زوجة «عبد الغفار بن عفان» وأنجبا ولداً سمياه عبد الرحمن على اسم جده الإمام. أما الابنة الثانية فلم يذكر اسمها، إنما ذكر اسم زوجها «اسماعيل بن يزيد بن حجر» وأنجبا ولداً ذكراً سمياه عبد الله، وكانت كنيته مثل جده «أبو عمرو». وأما الابنة الثالثة فلم يعرف عنها شيئاً. أما الصبي فهو «محمد بن عبد الرحمن» ولد بعد عام ١٤٨ هـ، ولكنه لم يعمر طويلاً، فمات في خلافة الخليفة العباسي هارون الرشيد عام ١٧٧ هـ.

وفي وصف الإمام الأوزاعي وعلومه قال الحافظ أبو نعيم في «حلية الأولياء»: «هو العلم المنشور، والحكم المشهور، الإمام المبجل، والمقدام المفضل، عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي رضي الله تعالى عنه. كان واحد زمانه، وإمام عصره وأوانه، كان ممن لا يخاف في الله لومة لائم، مقوالاً

---

(٢) أبو زرعة (عبد الرحمن بن عمرو النصري الدمشقي): تاريخ أبي زرعة، حديث رقم ٣٦٨، ٢٣١٩، مجمع اللغة العربية ـ دمشق، (لا. ت). انظر أيضاً: الشيخ مروان محمد الشعار، المرجع السابق، ص ٢٠.

بالحق لا يخاف سطوة العظائم»[٣]. وكان متواضعاً، سريع الرجوع إلى الحق إذا سمعه، وكان ذا حافظة قوية، فصيحاً، كريماً، وفياً، وكان صاحب عبادة وخشوع، عظيم الاحترام للعلم وأهله.

ومن الأهمية بمكان القول إن الإمام الأوزاعي عاش في عهدين سياسيين هامين، فقد شهد وعاش في العهدين الأموي والعباسي. فهو ولد في خلافة الوليد بن عبد الملك، وشهد عهود الخلفاء سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وابراهيم بن الوليد بن عبد الملك، كما شهد انقراض الدولة الأموية، بمقتل مروان بن محمد عام ١٣٢ هـ وولادة الدولة العباسية حيث عاصر كل من الخليفة أبي العباس والخليفة أبي جعفر المنصور.

وكانت الفترة التي عاشها الإمام الأوزاعي تزخر بالعلم والعلماء والفقهاء والقراء والمحدثين. ومن أبرز علماء تلك الفترة: مالك بن أنس، سفيان الثوري، جعفر الصادق، الحسن البصري، محمد بن سيرين، أبو حنيفة النعمان، حماد بن زيد، الزُهري، عطاء بن أبي رباح، يحيى بن أبي كثير، حسان بن عطية، معمر بن راشد، والليث بن سعد وسواهم الكثير. كما أشار ابن عساكر إلى بعض الفقهاء والمحدثين والحفاظ المعاصرين لتلك الفترة منهم: أبو عبد الرحمن القاسم، أبو عبد الله المكحول، عبد الله الربعي، أبو ادريس الأصفر، عبد الملك بن النعمان، سليمان بن بزيع، عياش بن دينار، علي وعبد الحميد بكار، بلال بن سعد، سليمان بن موسى الأشدق، ابراهيم بن أبي عبلة، ويزيد بن عبد الله بن صالح البيروني، وسواهم الكثير

---

(٣) الأصبهاني (أبو نعيم): حلية الأولياء، جـ ٦، ص ١٣٥، دار الكتب العلمية ـ بيروت، (لا. ت). أنظر أيضاً حول صفاته: محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ص ٦٨ ـ ٧٧ تنقيح وتعليق: الأمير شكيب أرسلان. مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة (لا. ت).

ممن عاشوا في بيروت وبلاد الشام، ولا تزال بعض عائلاتهم مستقرة حتى اليوم في المنطقة(*).

ويلاحظ أن الإمام الأوزاعي تفوّق علمياً وفقهياً وجرأة على كثير من علماء عصره، وقد أفتى وهو في الثالثة عشرة من عمره في مسائل فقهية، بينما أفتى وهو في السابعة عشرة من عمره في مسائل عقدية. واستطاع في حضرة الخليفة هشام بن عبد الملك مناظرة «القدري» والتفوق عليه، بل أفتى بقطع رقبته فقطعها الخليفة فوراً، في حين لم يستطع حسان بن عطية شيخ الإمام الأوزاعي من مواجهة «القدري» أو إصدار فتوى بقطع رأسه(٤). بالإضافة إلى ذلك فقد كان الإمام الأوزاعي محدثاً وحافظاً للأحاديث النبوية الشريفة بشكل مميز، كما عمل في الجرح والتعديل.

وكان الإمام الأوزاعي مؤمناً أشد الإيمان بالقاعدة الإسلامية «الرحلة في طلب العلم»، لذا تنقل في مدن الشام وفي اليمامة والبصرة والمدينة المنورة وبيت المقدس، وحجّ أكثر من مرة. ولذلك فقد تعمّق الإمام في العلوم الدينية والشرعية بشكل ملفت للنظر، وبات مفتياً من أهم مفتي الإسلام. وقد روى الرازي بسنده عن ابن المديني قال: «نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة: الزهري، عمرو بن دينار، قتادة، يحيى بن أبي كثير، أبو اسحق الهمداني، والأعمش، ثم صار علم هؤلاء الستة من أهل الشام إلى عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي»(٥). وقال الإمام الشافعي: «ما رأيت رجلاً أشبهُ فقهه بحديثه من الأوزاعي». وأشار ابن عساكر في تاريخه: «أول ما سئل الأوزاعي عن الفقه

(*) استناداً إلى المصادر الأساسية القديمة فإن من أقدم العائلات العربية المتوطنة في بيروت عائلات: بكار، عبلا، المكحول، الربعة، النعمان، صالح، سعد، ادريس، قاسم، بزيع... ثم تلتها فيما بعد موجات العائلات المغربية والحجازية والمصرية والشامية (للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧).

(٤) ابن عساكر (علي): تاريخ دمشق (مطبوع)، جـ١، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧، المجمع العلمي العربي ـ دمشق.

(٥) ابن أبي حاتم: تقدمة المعرفة، ص ١٨٧، دار الكتب العلمية ـ بيروت (لا. ت.).

سنة ثلاث عشرة ومائة، وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة، ثم لم يزل يفتي بعد ذلك بقية عمره إلى أن توفي رحمه الله». وقال الإمام النووي: إن الشيرازي ذكر في «طبقات الفقهاء» أن الأوزاعي سئل عن الفقه ـ يعني استفتي ـ وله ثلاث عشرة سنة(٦). والفتاوى التي أصدرها كانت بدافع ديني متطوعاً في خدمة الإسلام والمسلمين إلى أن تولى الافتاء في دمشق بعد عام ١٣٦ هـ، وسرعان ما ترك هذا المنصب وعاد إلى بيروت مرابطاً مجاهداً.

وبالرغم من أن الإمام الأوزاعي كان حريصاً على دراسة الفتاوى دراسة معمقة، غير أنه أفتى في حياته ما يقارب سبعين ألف مسألة في شتى مجالات وأنواع الفُتيا(٧). وقد أشار عمرو بن أبي سلمة أنه قال للإمام الأوزاعي: «يا أبا عمرو أنا ألزمك منذ أربعة أيام ولم أسمع منك إلا ثلاثين حديثاً. قال: وتستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام! لقد سار جابر بن عبد الله إلى مصر واشترى راحلة فركبها حتى سأل عقبة بن عامر عن حديث واحد وانصرف إلى المدينة، وأنت تستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام»(٨).

أما فيما يختص بالقضاء فقد رفض الإمام الأوزاعي منصب القضاء في العهدين الأموي والعباسي. فلما ولي زمن يزيد بن الوليد جلس مجلساً واحداً ثم استعفى. وفي العهد العباسي حاول عبد الله بن علي توليته القضاء فاعتذر الأوزاعي. وفي رواية للذهبي في «سير أعلام النبلاء» قال: «قال عقبة بن علقمة البيروتي: أرادوا الأوزاعي على القضاء فامتنع وأبى فتركوه»(٩). وكان

(٦) أنظر حول هذا الموضوع: الشيخ مروان محمد الشعار، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٧) أنظر: ابن عساكر، جـ ١٠ (مخطوط في كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية ـ بيروت)، ابن أبي حاتم، المصدر السابق، ص ١٨٤، الإمام الذهبي: تذكرة الحفاظ، جـ١، ص ١٧٩ دار الكتب العلمية ـ بيروت (لا. ت.). ابن حجر العسقلاني (أحمد): تهذيب التهذيب، جـ٦، ص ٢٤٠، دار صادر ـ بيروت.

(٨) أنظر: د. عمر عبد السلام تدمري: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي، جـ٣، ص ٣٩٢، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء ـ بيروت ١٩٨٤؛ الشيخ طه الولي، المرجع السابق، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٩) أنظر: تاريخ أبي زرعة، حديث رقم ٢٣٢٠، الإمام الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٧، ص ١١٦، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٥.

يرى الإمام الأوزاعي أن القضاء مسؤولية إسلامية ضخمة لا يمكن لأي إنسان أن يتحمّل وزر مسؤوليتها. وقد روى ابن عساكر عن عقبة بن علقمة البيروتي قال: «أرادوا الأوزاعي للقضاء فامتنع وأبى فتركوه. قال: فقلت لعقبة: هم كانوا يكرهون الناس على ما يريدون فكيف لم يكرهوا الأوزاعي؟ فقال: هيهات إنه كان في نفسهم أعظم قدراً من ذلك». وكان رفضه لتولي القضاء، نظراً لخشيته من أن يُسئل عن أخطائه يوم الحساب. وكان الناس في عهده، إذا ما رأوا عالماً تولى القضاء، يعتبرون أنه ابتلي كقولهم: «ابتلي بالقضاء» و«امتحن بالقضاء». فالإمام أبو حنيفة والإمام مالك قد حُبسا وضربا لأنهما رفضا أن يتوليا القضاء، وسفيان الثوري فرَّ وتنقل متخفياً لأنهم أرادوه على قضاء الكوفة فأبى. ولما سئل الإمام الأوزاعي لماذا ترفض القضاء قال: قال الرسول محمد ﷺ: «القضاء ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار؛ قاض عمل بالحق في قضائه، فهذا في الجنة، وقاض علم بالحق وجار متعمداً، فذلك في النار، وقاض بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فذلك في النار»، فلهذا أرفض القضاء(١٠).

وبالرغم من رفضه للقضاء، غير أن القضاة كانوا يحكمون بفقهه. وجاء في طبقات الشافعية للسبكي: «كان القضاء بمصر للمالكية، وفي الشام للأوزاعية، إلى أن ظهر فقه الشافعي... وإن قضاء الشام وخطابته كانا للأوزاعية، ثم للشافعية بعد انتشار مذهب الشافعي، وفي الغرب للمالكية، وفيما وراء النهر لأبي حنيفة»(١١).

هذا وقد أجمع العلماء على علم الإمام الأوزاعي وسعة مداركه وفقهه، وقد روى أبو محمد الرازي عن الإمام أحمد بن حنبل (رضي الله عنه) قال: «دخل سفيان الثوري والأوزاعي على مالك فلما خرجا قال مالك: أحدهما

(١٠) شفيق طبارة: الإمام الأوزاعي: سيرته، شخصيته، تعاليمه، وآراؤه، ص ٢٤٧. مؤسسة الخدمات الاجتماعية بالأوزاعي - بيروت ١٩٦٥.

(١١) ابن أبي حاتم: تقدمة المعرفة، ص ٢٠٣، ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، جـ ٦، ص ٢٤١، الإمام الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ١١٢، الشيخ طه الولي، المرجع السابق، ص ٥٧.

أكثر علماً من صاحبه ولا يصلح للإمامة والآخر يصلح للإمامة. قال أبو محمد: يعني الأوزاعي».

وروى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» عن يحيى بن سعيد القطان عن مالك بن أنس قال: «اجتمع عندي الأوزاعي وسفيان الثوري وأبو حنيفة. فقلت: فأيهم وجدته أكثر علماً؟ قال: كان أرجحهم الأوزاعي»(١٢). وروى أبو محمد الرازي بسنده عن عون بن حكيم قال: «خرجت مع الأوزاعي حاجاً فلما أتينا المدينة أتى الأوزاعي المسجد، وبلغ مالكاً مَقدمهُ، فأتاه فسلَّم عليه فجلسا من بعد صلاة الظهر يتذاكران العلم، فلم يذكر باباً من أبوابه إلا غلب الأوزاعي عليه فيه. ثم حضرت صلاة العصر فصليا ثم جلسا وعاودا المذاكرة كل ذلك يغلب عليه الأوزاعي فيما يتذاكران...»(١٣).

والحقيقة فإن العلماء حرصوا على تقدير الإمام الأوزاعي، والاعتراف بعلمه وفضله واحترامه. ولم يرَ سفيان الثوري غضاضة من أن يمسك في مكة المكرَّمة بزمام ناقة الأوزاعي ويعبر بها بين الناس، ويقودها والأوزاعي عليها بين الصفا والمروة. كما حرص الإمام مالك على تكريم الإمام الأوزاعي عندما اجتمعا في موسم الحج. وقد روى ابن كثير في «البداية والنهاية» عن سفيان بن عيينة قال: «كان الأوزاعي إمام أهل زمانه، وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله ومالك بن أنس يسوق به والثوري يقول: أفسِحوا للشيخ، حتى أجلساه عند الكعبة وجلسا بين يديه يأخذان عنه». وروى ابن عساكر بسنده عن اسحق الفزاري قال: «لو كان الأوزاعي في أصحاب رسول الله ﷺ لكان فيهم وسط. قال المرجي: فأخبرت أبي فقال: بل هو عندي كان يكون من أكبرهم»(١٤).

(١٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (مخطوط) جـ ١٠، انظر أيضاً: الشيخ مروان محمد الشعار، المرجع السابق، ص ٤٧.

(١٣) ابن أبي حاتم، المصدر السابق، ص ١٨٤ - ١٨٥، ص ٢٠٧.

(١٤) ابن أبي حاتم، المصدر السابق، ص ٢٠٧، ابن عساكر (مخطوط) جـ ١٠، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ ١، ص ٢٤١، دار الآفاق الجديدة - بيروت (لا. ت.)، انظر أيضاً: محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ص ٢٥، ٦٢، الشيخ مروان الشعار، المرجع السابق، ص ٤٧ - ٤٨.

هذا وقد عظّمه الكثير من العلماء وامتدحوه مدحاً يؤكد على تبوأه المرتبة الأولى بين علماء عصره ومن بعد عصره. ومن هؤلاء الإمام الشافعي وأبي زرعة الدمشقي وابن عيينة وأبي اسحق الفزاري وابن مهدي واسماعيل بن عياش وسعيد بن بشير ومحمد بن سعد وأبي نعيم الأصفهاني وغيرهم كثير. ومما قاله الذهبي في «تذكرة الحفاظ» قال: «قال الحاكم: الأوزاعي إمام عصره عموماً وإمام أهل الشام خصوصاً»[١٥]. وروى أبو زرعة الدمشقي عن محمد بن حِمَير قال: «سمعت أبا اسحق الفزاري يقول: لو قيل لي: اختر للأمة لاخترت الأوزاعي»[١٦]. وروى ابن عساكر عن علي بن بكار مثل هذا القول. وقال الرازي بسنده عن عبيد الله بن سعيد قال: «سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: كان الأوزاعي إماما في السُّنَّة». وروى القاسم بن سلام قال: «أخبرني عبد الرحمن بن مهدي قال: ما كان بالشام أحدٌ أعلم بالسُّنَّة من الأوزاعي»[١٧].

وكان الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه) من كبار الأئمة المدافعين عن الإسلام والسُّنَّة النبوية المطهرة، لا سيما في فترة تزايد البدع والجدال والانحراف عن القرآن الكريم والسُّنَّة. وقد روى الرازي بسنده عن موسى بن يسار قال: «ما رأيت أحداً أبصر ولا أنفع للغل عن الإسلام أو السُّنَّة من الأوزاعي»[١٨]. وروى الحافظ أبو نعيم بسنده عن أبي اسحق الفزاري عن الأوزاعي قال: «كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السُّنَّة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله». وحارب الإمام الأوزاعي البدع والجدال وقال: «إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل».

ومن الأهمية بمكان القول، إنه بالرغم من أن الخلفاء والأمراء والولاة

(١٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ، جـ١، ص ١٨٠.

(١٦) تاريخ أبي زرعة، حديث رقم ٣٨١، ٢٣١٨. أنظر: محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ص ٤٠.

(١٧) ابن أبي حاتم: تقدمة المعرفة، ص ١٨٤، ٢٠٣.

(١٨) ابن أبي حاتم، المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

والعلماء كانوا يتقربون منه، ويستفتونه، غير أنه لم يجامل ولم يخف في الله لومة لائم. بل كان حريصاً على الجهاد والرباط والدفاع عن الحق والمظلومين. ومن أشهر من اتصل بهم من الخلفاء الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك والخليفة العباسي جعفر المنصور. ويذكر أنه دخل مرة على أبي جعفر المنصور ورفض طلبه لبس السواد - شعار بني العباس - فسأله لماذا رفض واستعفى لبس السواد، فقال الإمام الأوزاعي: «يا ابن أخي لم يُحرم فيه محرم قط، ولا يكفن فيه ميت قط، ولم تزين فيه عروس قط، فما أصنع بلبسه»[١٩]. وحدث أن أحد ولاة الشام أراد أمراً من الإمام الأوزاعي، فلم يستجب له، فظن أن باستطاعته إيذاء الإمام، غير أنه نُصح بعدم الإقدام على أي أمر في هذا المجال. لذا قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: «كان الأوزاعي في الشام معظّماً مكرّماً، أمره أعز عندهم من أمر السلطان، وقد هم بعض الولاة مرة فقال له أصحابه: دعه عنك والله لو أمر الأوزاعي أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك»[٢٠]. وأكد صالح بن يحيى في «تاريخ بيروت» بأن الإمام الأوزاعي كان عظيم الشأن في الشام، «وكان أمره فيهم أعز من أمر السلطان»[٢١]. وأضاف بأنه ألّف كتاباً عن حياته، ولكن لم يعثر عليه حتى الآن.

ومن رسائل الإمام الأوزاعي الهامة رسالته إلى أبي جعفر المنصور يلتمس الفداء لأهل «قاليقلا» معتمداً في رسالته على القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والقياس. وقد استجاب المنصور لطلب الإمام وأمر بالفداء، ثم تبادل معه عدداً من الرسائل. كما أرسل الإمام الأوزاعي رسالة إلى أبي جعفر

(١٩) ابن كثير (الحافظ): البداية والنهاية، جـ١٠، ص ١١٩ - ١٢٠. مكتبة المعارف - القاهرة ١٩٨٣، محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ص ١١٨ - ١١٩. الشيخ طه الولي، المرجع السابق، ص ٥١ - ٥٢.

(٢٠) ابن كثير، المصدر نفسه، جـ١٠، ص ١٢٠.

(٢١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٣، تحقيق: فرنسيس هورس اليسوعي، كمال الصليبي، بالاشتراك مع آخرين، دار المشرق، بيروت ١٩٦٩، انظر أيضاً: محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ص ٨٩.

المنصور تضمنت طلبه زيادة أرزاق أهل الساحل ورفع الأعباء عنهم بسبب غلاء الأسعار، ونظراً لمواقفهم وجهادهم في الساحل. كما أرسل الإمام الأوزاعي رسالة إلى المهدي ابن أمير المؤمنين طلب فيها دعم أوضاع أهل مكة نظراً للغلاء وزيادة الأسعار وهلاك المواشي وتفشي الجوع. لذا طلب منه التوسط لدى والده لإغاثة أهل مكة وضواحيها بحمل الطعام والزيت إليهم قبل هلاكهم(٢٢). ولم يترك الإمام الأوزاعي مظلمة إلاّ وتدخّل لحلها سواء هي متعلقة بالجماعة أم بالأفراد، فبات مرجعاً أساسياً لحل القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، وبمبادرة فردية منه أم بتوسط البعض لديه.

ومن أهم مميزات الإمام الأوزاعي وهو مقيم في بيروت دفاعه عن المظلومين من المسلمين والنصارى على السواء. وقد برز بشكل واضح في مسألة دفاعه عن نصارى جبل لبنان إبان ثورة المنيطرة في عام ١٤٢ هـ - ٧٥٩ م قريباً من أَفقا. وقد امتدت الثورة إلى البقاع، واقتربت نحو بعلبك مركز الوالي العباسي، وكان الوالي صالح بن علي قد وجه إلى جبل لبنان جنوداً لإخماد الثورة، فعمد هؤلاء إلى إخمادها ومقاتلة الثوار وقتلهم، ثم أمر الوالي العباسي بإجلاء قوم منهم من جبل لبنان إلى مناطق أخرى. وقُتل في هذه الأحداث بعض الأبرياء من أهل الذمة النصارى، لذا أرسل الإمام الأوزاعي رسالة مطوّلة إلى الوالي صالح بن علي أشار إلى بعض منها البلاذري في «فتوح البلدان» وابن سلام في «الأموال» ومما جاء في هذه الرسالة:

«... وقد كان إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى «ألا تزر وازرةٌ وزر أخرى» وهو أحق ما وُقِفَ عنده واقتُدِيَ به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فإنه قال: «من ظلم معاهداً وكلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه». ومن كانت له حرمة من دمه فله في ماله والعدل عليها مثلها، فإنهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى

(٢٢) انظر نصوص الرسائل في: ابن أبي حاتم: تقدمة المعرفة، ص ١٨٧ - ٢٠٢. انظر أيضاً: الشيخ مروان محمد الشعار: الإمام الأوزاعي إمام السلف، ص ١٣٦ - ١٤٩.

بلد في سعة. ولكنهم أحرارٌ أهل ذمة، يرجم محصنهم على الفاحشة ويحاص نساؤهم نساءنا، من تزوجهن بنا القَسم والطلاق والعدة سواء...»(٢٣).

وكان لهذه الرسالة الأثر الإيجابي بالنسبة للنصارى في جبل لبنان، حيث أذعن الوالي لمطالب الإمام الأوزاعي، فأوعز إلى عماله بمعاملة النصارى معاملة حسنة، لا سيما الأبرياء منهم وبإعادة المهجرين إلى قراهم.

ويبدو أن الإمام الأوزاعي بات الملجأ والملاذ ليس للمسلمين وحسب، وإنما المدافع عن أهل الذمة استناداً إلى القرآن الكريم والسُّنَّة النبويّة. لذا كتب مرة إلى الوالي أبي بلج حضّه على معاملة أهل الذمة والرعية كافة معاملة حسنة.

ومما جاء في رسالته: «أما بعد، صرف الله عنا وعنك الميل عن الحق بعد المعرفة، والجهل عما نفع، واتباع الهوى بغير هدى منه... وقد رأيت كتباً ظهرت فيما عندكم ومقالة سوء بعقوبة فرط، وصحبة غليظة للمسلمين، قد أوصى رسول الله ﷺ بخفض الجناح لهم، وبالرأفة بهم، والمعدلة بينهم، يعفى عن مسيئهم فيما يجمل العفو عنه ويعاقب المذنب على قدر ذنبه لا يتقحم بالعقوبة وجهه... ثم إنكم جعلتم أمانتكم من أهل ذمتكم مأكلاً وبين أهوائكم مشرباً حتى هُلكت الأموال وعُلِّقت الرجال مع المثلة في اللِحى وتقطيع الأبشار، ورسول الله ﷺ يقول فيما بلغنا «من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه» فأعظم بندامة من رسول الله ﷺ عن قليل حجيجه.

لقد أحدثت تلك الأعمال، فيما بلغني من المسلمين ضغائن، ولبعض ذوي النهي في جهاده معكم رياء بما تأتينا بذلك كتبهم يسألون عنه. اسأل الله أن يثني بنا وبكم إلى أمره، ويتغمد ما سلف منا ومنكم بعفوه. وذكرت أن أكتب إلى صاحبك فإنه يتجمل بالكتاب إليه، ويستمع مني، ولعل الله عز وجل أن ينفع، وقد كتبت إليه بما لم آله نصحاً...».

(٢٣) البلاذري (أحمد بن يحيى): فتوح البلدان، ص ١٦٧، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٣، ابن سلام (القاسم): الأموال، ص ٤٦٥ - ٤٦٦، حديث رقم ٤٦٨، دار الحداثة - بيروت ١٩٨٨، الشيخ طه الولي: عبد الرحمن الأوزاعي، ص ٥٦.

والحقيقة فقد بات الإمام الأوزاعي في مقره في بيروت موئلاً للمؤمنين ومرجعاً لهم يلقي فيهم الخطب والأحاديث والمواعظ والأقوال المأثورة، مما كان له أبعد الأثر في إيمانهم ونفوسهم. فقد حظوا بإمام من كبار الأئمة والعلماء، لذا ترك فيهم علماً وتواضعاً وخُلقاً وسيرة حسنة، فكان ولا يزال «القدوة». ومن أقواله المأثورة: «إن المؤمن يقول قليلاً ويعمل كثيراً، وإن المنافق يقول كثيراً ويعمل قليلاً». ومن أقواله في تقدير العلم «من تعلم باباً من العلم كان أفضل من عبادة حولٍ يُصام نهاره ويُقام ليله». ومما قاله: «الناس عندنا أهل العلم»[٢٤]. وفي تعريفه للعامل والعمل قوله: «العمل: أن تعمل عملاً لا تريد أن يحمدك الناس عليه». ومما قاله: «كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، فلما صرنا أئمة يقتدى بنا، فلا نرى أن يسعنا ذلك وينبغي أن نتحفظ»[٢٥].

ويروى عن الإمام الأوزاعي رفضه باستمرار للهدايا سواء مقابل خدمة أدّاها أم لم يؤدِّها. ففي إحدى المرات شكا إليه رجل من أهل الذمة من القاع عدم مقدرته على دفع قيمة الخراج، فكتب له إلى عامل الخراج وهو ابن الأزرق وكان عاملاً لأبي جعفر على الخراج، واستطاع الإمام الأوزاعي أن يقضي حاجة الذمي. فما كان من الذمي إلاّ أن أهدى الإمام قمقماً من العسل، فرفض الإمام إلاّ أن يدفع ثمنه وقال له: إن شئت قبلنا منك وقبلت منا، وإلاّ رددنا عليك كما رددت علينا. فأخذ النصراني الدنانير وأخذ الإمام الأوزاعي القمقم[٢٦].

وفي رواية أخرى أن أحد المحدثين قدم إليه من مكة ليسمع منه، فأهداه

(٢٤) ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي): صفة الصفوة، جـ ٤، ص ٢٥٦، دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٩.
(٢٥) ابن كثير، المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١١٩، محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ص ٤٣، ٨٣ ـ ٨٤.
(٢٦) ابن أبي حاتم، المصدر السابق، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

طرائف من طرائف مكة. فقال له الإمام الأوزاعي: «إن شئت قبلت هديتك، ولم تسمع مني حرفاً، وإن شئت فاقبض هديتك واسمع»[٢٧].

وكان الإمام الأوزاعي يرفض الكذب والكذب غير المقصود والذي يسمَّى «الكذب الأبيض» فقد حدث مرة أن خرج من باب المسجد في بيروت، فرأى رجلاً يبيع الناطف وآخر يبيع البصل وهو يقول: يا بصل يا أحلى من العسل، أو قال: أحلى من الناطف. فقال الأوزاعي: سبحان الله، أيظن هذا أن شيئاً من الكذب يباح؟ فكأن هذا ما يرى في الكذب بأساً»[٢٨].

لقد كرَّم الله عزّ وجلّ الإمام الأوزاعي، وقد روى الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام» عن عمرو بن أبي سُلمة بأنه سمع الإمام الأوزاعي يقول: «رأيت كأن ملكين نزلا فأخذا بضبعي فعرّجاني إلى الله تعالى وأوقفاني بين يديه فقال: أنت عبدي عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. قال: قلت: بعزّتك ربّ أنت أعلم، قال: فردَّاني إلى الأرض»[٢٩].

وفي رواية ابن عساكر في «تاريخ دمشق» بسنده عن محمد بن الأوزاعي قال: قال أبي: «يا بني أريد أن أحدِّثك بشيء ولا أفعل حتى تعطيني موثقاً أنك لا تحدّث به أحداً ما دمتُ حياً، قال: فقلت: أفعلُ يا أبتِ، قال: إني رأيت فيما يرى النائم أني أدخلتُ الجنة فإذا برسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وهم يعالجون مصراع باب الجنة، فإذا ردوه زال، ثم يعالجونه فإذا ردوه زال، قال: فقال لي رسول الله (ﷺ): يا عبدَ الرحمن، ألا تمسك معنا؟ قال: فجئت فأمسكت معهم فثبت»[٣٠].

وفي رواية أخرى قال الوليد بن مسلم البيروتي: «رأيت النبي ﷺ في منامي فقلت يا رسول الله عن من أكتب العلم؟ فقال: عن الأوزاعي، فقلت

(٢٧) تهذيب ابن عساكر، جـ ٦، ص ١٢٩، عبد القادر بدران ـ دمشق ١٩٧٩.
(٢٨) ابن كثير، المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١١٩.
(٢٩) الحافظ الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ ٦، ص ٤٨٦، محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ص ٤٠.
(٣٠) ابن عساكر، جـ ١٠ (مخطوط)، الشيخ طه الولي، المرجع السابق، ص ٨٥.

له: عن عبد الله بن سمعان، قال: لا، عن الأوزاعي»[٣١]. وأكد الكثير مثل هذه الروايات منهم: الحافظ الذهبي، وبشر بن بكر، وابن كثير، والجوزي، ومحمد بن شعيب وغيرهم، وهناك أحاديث عن هؤلاء وسواهم أن عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي خير من يمشي على الأرض..

وعن عمير بن عفان والعباس بن الوليد البيروتي وعن أبناء بيروت المعاصرين للإمام الأوزاعي أنهم عندما كانوا يدخلون إلى منزله في باطن بيروت، فيجدون مكان مصلاه رطباً من كثرة دموعه أثناء الليل ووقت الصلاة. وقد أكدت زوجته أن هذه الرطوبة والبلل من أثر دموع الشيخ من بكائه في سجوده، وهكذا يصبح كل يوم[٣٢].

الإمام الأوزاعي إمام بيروت والشام والأندلس

استطاع الإمام الأوزاعي بعلمه وفضله وأخلاقه وجهاده أن يكون قدوة حسنة في الدين والدنيا، لذا انتشر مذهبه في بيروت وبلاد الشام والأندلس، كما تأثرت به مناطق عديدة من الولايات العربية والإسلامية نظراً لتنوع رحلاته وتلامذته. والحقيقة فإن مذهبه وعلمه لم يتيسر لهما الانتشار كثيراً إلاّ بعد مكوثه في بيروت مرابطاً لأن أكثر سني حياته المنتجة والغزيرة قضاها في بيروت. علماً أن تلاميذه ومريديه وضياع مؤلفاته، وابتعاده عن المناصب، وبالتالي عدم اعتناق الحكّام لمذهبه، هي من جملة العوامل التي ساهمت في عدم استمرار العمل بمذهبه بخلاف سواه من المذاهب.

ومن الثابت من خلال الدراسات التاريخية والفقهية أن الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه) غادر دمشق قبل دخول العباسيين إليها، متوجهاً إلى بعلبك فالكرك في البقاع، ثم توجه بعد أيام إلى حماه لملاقاة عبد الله بن علي، ومن حماه توجه إلى بيروت في ٩ رمضان عام ١٣٢ هـ[*] رافضاً مشاهدة الفتنة

---

(٣١) ابن عساكر، جـ ١٠ (مخطوط)

(٣٢) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ١٢٠

(*) أشارت المصادر إلى أن الإمام الأوزاعي وصل بيروت عام ١٣٢ هـ - وليس كما أشار الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل في كتابه: الإمام الأوزاعي فقيه أهل الشام، أنه سكن بيروت في آخر عمره مرابطاً، ص ٢٣ - ٢٤.

والاقتتال بين المسلمين. وعندما وصل الإمام إلى بيروت قال: «أعجبني في بيروت أني مررت بقبورها فإذا امرأة سوداء في القُبور فقلت لها: أين العمارة؟ [ويقصد المدينة] فقالت: إن أردت العمارة فهي هذه - وأشارت إلى القبور - وإن كنت تريد الخراب فأمامك - وأشارت إلى البلد - فعزمت على الإقامة بها»[٣٣]. وأكد الإمام الأوزاعي أنه جاء إلى بيروت مرابطاً للدفاع عن الثغور الإسلامية. ويرى أ. عبد العزيز سيد الأهـل أن المقبرة التي مر بها الإمام هي الباشوراء.

وبالفعل فقد سكن الإمام الأوزاعي في باطن بيروت إزاء البحر في منطقة عرفت لقرون عديدة باسم منطقة الأوزاعي، ثم تحول اسمها تباعاً إلى «درب الطويلة» ثم إلى «سوق الطويلة». وكان منزله يغص باستمرار بأبناء بيروت والشام ومكة وأبناء ولايات عربية عديدة. ثم تحول منزله إلى زاوية يصلى فيها وتعقد فيها الاجتماعات الدينية والسياسية والاجتماعية. وباتت بيروت والأوزاعي توأمان لا ينفصلان في الجهاد والرباط على طول الساحل الشامي. ومنذ أن توطن الإمام الأوزاعي في بيروت استحدث المسلمون الذين اعتنقوا مذهبه مبدأ جهادياً يقوم على إرسال المجاهدين إلى بيروت للدفاع عنها وعن الثغور الشامية، وكان في مقدمة من اعتنق هذا المبدأ أبناء بعلبك الذين كانوا يرسلون سنوياً مجموعة من الشبان للمرابطة في بيروت، لذا أنشىء لهم خصيصا برجاً عسكرياً كان بمثابة ثُكنة عسكرية عرف باسم «بُرج البعلبكية» كان من أهم أبراج بيروت العسكرية المدافعة عن الثغر، واستمر هذا التقليد البعلبكي الإسلامي لقرون عديدة حتى العهد العثماني حيث كان ما يزال البرج قائماً[٣٤]. وقد أشار المؤرخ صالح بن يحيى في **«تاريخ بيروت»** إلى هذا البرج وأهميته العسكرية، كما نصح سفيان الثوري صاحبه حسان بن سليمان بالرباط

---

(٣٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٠، ص ١١٨، ابن عساكر، جـ ١٠ (مخطوط). ويرى الشيخ طه الولي في مرجعه السابق ص ٣٢، أن الإمام الأوزاعي شد رحاله إلى بيروت حوالي سنة ١٣٣ هـ، وليس سنة ١٣٢ هـ كما جاء في كثير من المصادر.

(٣٤) حسان حلاق: بيروت المحروسة في العهد العثماني، ص ٢٢، الدار الجامعية - بيروت ١٩٨٧.

في بيروت، ولما سأله لماذا؟ قال: عليك ببيروت فإن فيها الإمام الأوزاعي. لهذا نرى أن مذهب الإمام الأوزاعي لم يكن مذهباً قائماً على القول والنظرية، بقدر ما كان قائماً على الفعل والتطبيق. فقد صنف الإمام العديد من المصنفات الفقهية والعلمية يأتي في مقدمتها أربعة كتب هي: المسند، السنن في الفقه، المسائل في الفقه، والسير. كما كتب أربعة عشر كتاباً بعد مجالسته شيخه يحيى بن أبي كثير في اليمامة. ولكن مما يؤسف أن أكثر هذه المصنفات، بما فيها بعض رسائله وسبعين ألف فتوى لم نجدها، بل فقدت نتيجة للحروب والزلازل والحرائق التي حدثت في بيروت أو في مناطق أخرى عبر سنوات وقرون عديدة. بينما حفظ لنا الإمام الشافعي (رضي الله عنه) المتوفى عام ٢٠٤ هـ كتاب الإمام الأوزاعي «السير» بإثباته في كتابه «الأم». وتشير بعض الدراسات إلى أن جامعة القرويين في المغرب تحتفظ بمجلد ضخم مخطوط من مصنفات الإمام الأوزاعي. غير أن تلامذته ومريديه نسخوا في عصره وبعد وفاته تلك المصنفات أو بعضها، مما أسهم في انتشار مذهبه في أرجاء عديدة من العالم الإسلامي، وما تزال بعض آثار تعاليمه ومذهبه قائمة حتى اليوم في بلاد الشام. وقد انتشر مذهبه في بلاد الشام حوالي (٢٢٠) سنة دون انقطاع، كما انتشر لمدة أربعين سنة بعد وفاته في بلاد المغرب والأندلس بواسطة الفقيه صعصعة بن سلام الشامي الذي حمله إلى مصر وحدَّث به فيها، وروى عنه موسى بن ربيعة الجمحي، ثم انتقل به إلى المغرب والأندلس فلقي قبولاً واستحساناً من المسلمين لتوافقه مع طبيعتهم وعقيدتهم الجهادية فاتبعوه. وأشار الحميدي في «جذوة المقتبس» بأن الفقيه الأندلسي زهير بن مالك البلوي أبو كنانة كان «يفتي بقول الأوزاعي» وكان معاصراً لعبد الملك بن حبيب السلمي(٣٥).

هذا وقد عمد الكثير من أبناء بيروت والشام والمغرب لقرون عديدة على الإقامة قرب منزله وزاويته تقرباً وتبركاً. واشتهرت بيروت بالإيمان والتقوى من خلال إمامها الأوزاعي، بدليل أن الشيخ محمد بن خضر ابن عراق الشافعي

(٣٥) انظر كتابنا: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٣٥، ٣٦، الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٨٧. نقلاً عن: الحميدي: جذوة المقتبس.

المتوفى عام ٩٢٣ هـ، حرص على اتخاذ إقامته وزاويته إزاء زاوية الإمام الأوزاعي، وذلك في أوائل العهد العثماني(٣٦).

ومما يدل على اعتقاد أبناء بيروت بكرامات الإمام الأوزاعي، ما وضع من شعر على قبره يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم
هذا ضريح إمام العلم أوزاعي
فيه أجاب بطوع دعوة الداعي
بشرى لزائره حاجاتُهُ قضيت
ونال ذو السقمِ منه برء أوجاعِ
وعام سبع وخَمسين وواحدة
ومائتين توفي غير مرتاع
فأقصده يا طالب الخيراتِ إن لَه
بكلٍ ما تبتغيه طولةَ الباع
عليه رحمة ربي ما بدا قمر
أو طاف بالبيتِ عبد أو سعى ساعي

ونظراً لكرامات الإمام الأوزاعي وتقرب الناس إليه وإلى ضريحه، فبعد دفنه، دفن الكثير في رحاب المسجد والضريح نذكر منهم: ابنه محمد، الوليد بن مزيد العذري البيروتي (١٣٦ ـ ٢٠٣ هـ، ٧٤٤ ـ ٨١٨ م) وأبو الفضل بن العباس بن الوليد البيروتي (١٧٩ ـ ٢٧٠ هـ، ٧٩٥ ـ ٨٨٤ م) وأبو مسهر البيروتي (المتوفى ٣٢١ هـ ـ ٩٣٣ م) وبعض أمراء آل أرسلان منهم: الأمير نعمان الأرسلاني (المتوفى ٣٢٥ هـ ـ ٩٣٦ م) وبعض علماء من آل الرفاعي الذين توالوا على نظارة المقام. كما دفن بجواره سعيد بن بشير جنبلاط المتوفي ١٢٧٧ هـ، ورياض الصلح المتوفى في ١٦ تموز ١٩٥١، ومفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد توفيق خالد المتوفى في ٢ آب ١٩٥٢، وأحمد سامح بن راغب الخالدي المقدسي المتوفى في ٢٤ ذي الحجة

(٣٦) انظر مقالنا: زاوية ابن عراق البيروتية، النهار ٢١/٥/١٩٩٢، النهار ٣٠/٤/١٩٩٢.

١٣٧٠ هـ، وشيخ الطريقة الشاذلية الشيخ علي نور الدين اليشرطي الحسيني الشاذلي المتوفى في ٧ جمادى الثانية ١٣٢٤ هـ، ومحمد عبد الله بيهم المتوفى ١٣٣٣ هـ، وبعض أمراء ظفار منهم الشريف محمد (١٩١٦) والشريف جعفر (١٩٢٧)، والشيخ سعيد إياس المتوفى في ٢١ ت١ ١٩٥٣، ومحمد سلام المتوفى في ٢٨ شباط ١٩٥٨، وكلثوم عمر البربير حرم سليم علي سلام المتوفية في ١٦ أيار ١٩٥٨، وابنها علي سلام المتوفى في ١٨ أيلول ١٩٦١ وحرمه شفيقة غريب المتوفية في ٧ كانون الثاني ١٩٦٥، وخالد العظم أحد رؤوساء الوزراء السورية المتوفى في ١٧ شباط ١٩٦٥. ومفتي الجمهورية اللبنانية الشهيد الشيخ حسن خالد المتوفى في أيار ١٩٨٩، والعالم الجليل محمد جمعة الداعوق رئيس المحاكم الشرعية الأسبق المتوفى عام ١٩٩٥، والمؤرخ الشيخ طه الولي المتوفى عام ١٩٩٦ وغيرهم. واستمرت ـ وما تزال ـ النذورات من البيروتيين واللبنانيين لسنين وعصور طويلة تقدم إلى ضريحه ومسجده في منطقة الأوزاعي[٣٧]. كما أوقف البيروتيون الكثير من الأوقاف إلى مقام الإمام الأوزاعي والمتضمنة أراض ودور ومساكن وأموال.

ومن بين أوقافه (رضي الله عنه) الضائعة ضمن الحدود المبينة في الوقف: قِبلةً: أراضي الغدير، من الشمال: أراضي وطا بطينا، من الشرق طريق صيدا، من الغرب: البحر المالح. وضمن هذه الأراضي مما يلي سهل بئر حسن، مقام سهل ابن مهاجر المعروف مقامه بشيخ الضهرة: (مكان المدينة الرياضية اليوم) وبمعنى آخر فإن أوقاف الإمام الأوزاعي كانت تضم الأراضي الممتدة، من مار الياس إلى منطقة الكولا بما فيه منطقة الطريق الجديدة امتداداً إلى طريق الشويفات وصيدا القديمة ثم تمتد هذه الأراضي من جهة الشمال بحدودها إلى جهة الجنوب حتى منطقة الغدير. وكل هذه الأراضي تمتد حتى البحر غرباً.

ومن المؤسف أن هذه الأوقاف ضاعت منذ أواخر العهد العثماني وازداد

(٣٧) انظر كتابنا: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، ص ١٠١، ١١٣، الدار الجامعية ـ بيروت الطبعة الثانية، ١٩٨٨، انظر أيضاً عن أضرحة مقبرة الإمام الأوزاعي: شفيق طبارة، الإمام الأوزاعي، ص ٢٨٨.

ضياعها في عهد الانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال، وسجلت بأسماء المستولين عليها صكوكاً وسندات ملكية رسمية، والمسلمون غافلون عما آلت إليه أوقافهم.

وفاة الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه)

توفي الإمام الأوزاعي يوم الأحد في ٢ صفر من عام ١٥٧ هـ. وكان في التاسعة والستين من عمره في خلافة أبي جعفر المنصور. وحول وفاته اتفق الرازي وقبيصة وابن عساكر وأحمد بن مروان وسفيان الثوري والحافظ الذهبي ومحمد بن عبيد وسواهم، من أن رجلاً أتى سفيان الثوري وقال له: يا أبا عبد الله رأيت في المنام كأن ريحانة قُلعت من الشام. فقال له سفيان: إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي. قال: فجاء رجل إلى سفيان فقال: أعظم الله أجرك في أخيك الأوزاعي فقد مات[٣٩].

وكان سبب وفاته أنه طلب من زوجته إدخال كانون من الفحم المشتعل إلى الحمام ليتدفأ عليه وهو يغتسل، مما أسفر عن انتشار غاز الفحم في الحمام فأغمي عليه، ثم توفي خنقاً لعدم قدرته على فتح باب الحمام. ولما تنبهت زوجته فتحت الباب فوجدته متوسداً ذراعه إلى جهة القبلة. وفي رواية أخرى لسبب الوفاة أن الإمام الأوزاعي كان في حمام السوق فزلت قدمه في داخله فأغمي عليه حتى مات. غير أن عقبة بن علقمة البيروتي وبإجماع المؤرخين والمعاصرين أكدوا على الرواية الأولى.

وعند وفاة الإمام الأوزاعي ـ رحمه الله ـ لم يعثر في منزله إلاّ على سبعة دنانير صرفت على جنازته، بالرغم من أن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يكرمونه ويمدونه بالمساعدات والمال التي بلغت نحو سبعين ألف دينار، غير

(٣٨) الشيخ عبد القادر قباني: أوقاف الإمام الأوزاعي، ثمرات الفنون، ٢٤ كانون الأول ١٩٠٦، ٢٨ ذي القعدة، ١٣٢٤ هـ، الشيخ طه الولي، المرجع السابق، ص ١٨٨ ـ ١٩٢، عبد العزيز سيد الأهل: الإمام الأوزاعي، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٣٩) ابن أبي حاتم، المصدر السابق، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠، ابن عساكر، جـ ١٠ (مخطوط)، انظر أيضاً: محاسن المساعي، ص ١٥٩.

أنه أنفقها على الرباط والجهاد والمجاهدين وعلى الفقراء والمساكين وعلى وجوه البر والإحسان، كما وضع قسماً كبيراً مما وصله في ديوان بيروت الخاص بالعطاءات متعددة الوجوه[٤٠].

كانت وفاة الإمام الأوزاعي حدثاً غير عادي نظراً لمقامه وكراماته ومواقفه، فقد روى الرازي بسنده عن سالم بن المنذر أن المسلمين والنصارى واليهود والأقباط خرجوا في جنازته من باطن بيروت مروراً بالضواحي ومناطق الرمال وصولاً إلى حرج صنوبر منطقة حنتوس التي عرفت فيما بعد بمنطقة الأوزاعي. وكانت بيروت المحروسة بجميع مناطقها وأحيائها وطوائفها قد خرجت للقاء جثمانه الطاهر مودعة باكية إمامها الجليل. ومن المناظر التي استرعت اهتمام المشيعين أن الكثير من النصارى قد خرجوا باكين متألمين يذرون الرماد على رؤوسهم تعبيراً عن حزنهم على الإمام الذي وقف معهم زمن المحنة. ولا ندري مدى صحة الرواية التي أوردها الشيخ عبد الغني النابلسي، من أنه يوم وفاة الإمام الأوزاعي أسلم من اليهود والنصارى نحواً من ثلاثين ألفاً[٤١] وقد وردت الرواية ذاتها في كتاب «العاقبة» لعبد الحق الأشبيلي وروى الرازي بسنده عن عبد الحميد بن حبيب قال: «لما سوّينا على الأوزاعي تراب قبره قام والي الساحل [الأمير أرسلان بن مالك بن المنذر اللخمي جد آل أرسلان] عند رأسه فقال: رحمك الله يا أبا عمرو، فوالله لقد كنت لك أشد تقية من الذي ولاني، فمن ظُلم بعدك فليصبر[٤٢]، وجاء في ابن عساكر بسنده عن ابن أبي العشرين قال: «سمعت أميراً كان بالساحل يقول ـ وقد دفنا الأوزاعي ونحن عند القبر ـ رحمك الله أبا عمرو فلقد كنت أخافك أكثر ممن

(٤٠) انظر: ابن عساكر، جـ ١٠ (مخطوط)، الحنبلي (ابن زيد): محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي، ص ٨٠، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٧، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٠، ص ١١٧ ـ ١١٨. عبد العزيز سيد الأهل: الإمام الأوزاعي، ص ٣١.

(٤١) النابلسي (الشيخ عبد الغني): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، ص ٨٥. انظر أيضاً: الشيخ طه الولي، المرجع السابق، ص ٤١.

(٤٢) ابن أبي حاتم: تقدمة المعرفة، ص ٢٠٧.

ولاني»[٤٣] أي المنصور. وقد تبين أنه اجتمع للصلاة عليه ما لا يحصى عددهم لكثرتهم. كما ذكر بأن البيروتيين والكثير من أبناء بلاد الشام والأندلس قد أطلقوا بمناسبة وفاته اسم «عبد الرحمن» على كل مولود ذكر وُلد بعد وفاته.

استنتاجات واقتراحات

كان الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه) مرابطاً وعالماً وفقيهاً وإماماً عُمل بمذهبه في بلاد الشام لأكثر من مئتي عام، وامتد إلى بلاد المغرب والأندلس. وبالرغم من أن التغيرات السياسية والاجتماعية فضلاً عن دور تلاميذه، أثرت مباشرة في عدم استمرار العمل بمذهبه، غير أن تعاليمه وفتاويه أثرت ـ وما تزال ـ في الشؤون والقضايا الإسلامية الخاصة والعامة، وفي الحريات الأساسية، وفي القضاء والمخاصمات، وفي العقوبات والأحوال الشخصية، وفي الأحوال المالية، وفي القانون الدولي ومبدأ السلام وفرض الجهاد والرباط، وفي معاملة الأعداء أثناء الحرب، وفي العديد من القضايا التي تناولها الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه).

وكانت سيرة الإمام الأوزاعي حافلة بالأعمال المجيدة، والتعاليم الفاضلة، وقد دلت على علو منزلته العلمية، وقوة شخصيته، التي أكسبته لدى العلماء والخلفاء والولاة والناس جميعاً هالة من الاحترام والوقار، وصلت أحياناً إلى درجة المهابة والخشية. لذا حرص أهل غزة في فلسطين على بناء مسجد باسمه، كما حرص أهل دمشق على بناء مسجد آخر باسمه في محلة باب توما، فضلاً عن مسجده الجامع في بيروت المحروسة إزاء ضريحه في منطقة الأوزاعي، وزاويته في باطن بيروت في سوق الطويلة.

وكان متواضعاً، تقياً، فاضلاً، زاهداً في السلطة والمال، وكان جريئاً لا يخاف في الله لومة لائم. وكان عدواً للنفاق والكذب. وكان ثقة في رواية

(٤٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٠ ص ١٢٠، انظر: الشيخ مروان محمد الشعار: الإمام الأوزاعي إمام السلف، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

الحديث، ومحاوراً ممتازاً، وكان صاحب مذهب فقهي ممتاز، لا يقل منزلة عن المذاهب الفقهية الأخرى، وهذا ما تؤكده المصادر الأساسية الفقهية والتاريخية.

وكان مذهب الإمام الأوزاعي أقرب إلى مذاهب أهل الحديث منه إلى مذاهب أهل الرأي. فكان يروي الحديث، ويتمسك حتى بالمرسل منه، ويتحرى آثار الصحابة والسلف الصالح، ثم عند عدم وجودها، يلجأ إلى الاجتهاد العملي مع تطعيمه بإنسانية بارزة.

وفي إطار «الأحكام السلطانية» الخاصة بقواعد القانون العام، وقف الإمام الأوزاعي موقف المؤمن بمبادىء المساواة والحريات العامة، لا سيما الحرية الشخصية وحرية العقيدة انطلاقاً من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وكان يشير على الخلفاء والولاة بالتقرب من الرعية، وبلزوم معاملتهم بالعدل والمساواة، وعدم ظلمهم والعدوان عليهم سواء أكانوا من المسلمين أم من أهل الذمة.

وأكد الإمام الأوزاعي على فضل الإحسان والصدقات والحسنات والتبرعات والهبات. فأبرز فوائدها للتحابب والتوادد بين الناس، غير أنه قيدها بواجب العدل بين الأولاد، وبواجب العناية بترك ما يكفي لأفراد العائلة. وأجاز الوقف في العقار، كما أجازه في الطعام لمصلحة المعوزين.

وأكد الإمام الأوزاعي على الجهاد والرباط كواجب إسلامي ووطني، وفي باب أحكام السلم والحرب وسائر مبادىء القانون الدولي، كان الأوزاعي من الرواد البارزين بين الفقهاء سواء بوفرة فتاويه الدقيقة، أم بروحه الإنسانية في دراستها، فدل ذلك على عمق فقهه وتفكيره، وعلى تفهمه التام لفكرة السلام القائم على العدل والوفاء بالتعهدات والمواثيق. وفي الأعمال الحربية حرّم الأوزاعي تخريب أو هدم أي معلم من معالم الأعداء مثل الأبنية والمعابد والكنائس. كما حرّم قطع الأشجار وعقر الحيوانات وقال: «إنه لا يحل للمسلمين أن يفعلوا شيئاً مما يرجع إلى التخريب في دار الحرب، لأن ذلك فساد، والله لا يحب الفساد».

من هنا ندرك لماذا وقف الإفرنج ـ أثناء سيطرتهم على بيروت وبلاد الشام ـ من زاويته في باطن بيروت، ومن ضريحه في منطقة حنتوس موقفاً مسالماً، فلم يخربوا آثارهما أو يحولوها إلى كنائس. وكان موقفه ـ رحمه الله ـ من النصارى إبان الأزمة قد ساعد أيضاً على اتخاذ ذلك الموقف.

ومن مبادئه السامية ضرورة الاستقامة في العلاقات الدولية، وتغليب الروح الإنسانية في تطبيقها، فأوجب مراعاة العهود والمعاهدات والمواثيق، والمحافظة على رهائن العدو، وعدم قتلهم حتى ولو غدر العدو برهائن المواطنين. فكان من واضعي أسمى مبدأ في القانون الدولي وهو «وفاء بغدر خير من غدر بغدر»[٤٤] على حد قول العلامة الدكتور صبحي المحمصاني.

كانت سماحة الإمام الأوزاعي تتمثل بدفاعه عن الإبرياء والضعفاء من مختلف الاتجاهات والأديان. وقد أشار المؤرخ فيليب حتي إلى نبل أخلاق الإمام الأوزاعي وعدالته بقوله: «إن النظرة اللبنانية الشاملة والروح اللبنانية السمحة تتجسدان في سماحة روح الأوزاعي وفي نبل أخلاقه. فإنه كان يشدد على فكرة العدل والرفق والعطف عندما كان الأمر يتعلق بالرعايا غير المسلمين... إننا لا نعرف فقيهاً من فقهاء المسلمين أظهر من نُبل العاطفة ما أظهره الأوزاعي في دعوته إلى الأخوة الإنسانية... ولا شك أن روح التحرر والتساهل التي تظهر في مذهب الأوزاعي، كانت من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في الأندلس المسيحية»[٤٥] وأخيراً لا يسعني بهذه المناسبة الكريمة مناسبة مرور (١٢٢٠) سنة على وفاة الإمام (رضي الله عنه) إلاَّ أن أتقدم ببعض الاقتراحات لعلها تسهم في تكريم هذا الإمام الجليل والفقيه الرائد، منها:

(١) إعلان عام ١٤١٥ ـ ١٤١٦ هـ، ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ م عام تكريم الإمام الأوزاعي، فلا يقتصر التكريم على هذه الذكرى، بل لا بد من مشاركة المؤسسات كافة ومساهمتها في تكريمه بالطريقة التي تراها مناسبة.

(٤٤) د. صبحي المحمصاني: الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية، ص ٤٢٠ ـ ٤٣٠.

(٤٥) د. فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ص ٣٢٩، تعريب: أنيس فريحة، نقولا زيادة، بيروت ١٩٥٩.

(٢) إعلان يوم واحد في كل عام «ذكرى الإمام الأوزاعي» ولا مانع من التعطيل في هذا اليوم، والدعوة لزيارة ضريحه ومسجده.

(٣) تنظيم مؤتمر علمي لبناني ـ عربي يعقد في بيروت، يشارك فيه علماء من مختلف المناطق والدول، للبحث في فقه وعلم الإمام الأوزاعي ودوره العلمي والسياسي والاجتماعي.

(٤) نشر وطبع المؤلفات الصادرة عن حياته وأعماله، وضرورة جمع اجتهاداته الفقهية وعلومه الشرعية.

(٥) ضرورة تبني معاهد وكليات الشريعة والدراسات الإسلامية والوطنية والحقوقية، تدريس كل ما يتعلق بفقه وعلم وتاريخ الإمام الأوزاعي لانعكاس ذلك إيجاباً على الواقع الفقهي والحقوقي والعلمي والوطني.

(٦) ضرورة الاهتمام بمسجد وضريح الإمام الأوزاعي في منطقة الأوزاعي وتوسعته، وجعله معلماً هاماً من معالم المسلمين واللبنانيين. فلو أن ضريح الإمام الأوزاعي في دولة أخرى لكنا رأينا مدى الاحترام والتقدير والتبجيل لهذا الإمام العالم الصالح المصلح. فالموقع يحتاج إلى اهتمام ورعاية أكثر، نظراً لمكانة الإمام الأوزاعي عند اللبنانيين والعرب. ولا بد من اتخاذ قرار جريء يقضي بعدم دفن الموتى في رحاب المسجد والضريح، إذ لو استمر هذا الأسلوب من التبرك على مدار السنين والعصور، لتحول المسجد إلى مقبرة أخرى من مقابر المسلمين. ونسوق هذا الاقتراح استناداً إلى الأحاديث الشريفة عن الرسول محمد ﷺ الذي نهى عن دفن الموتى في المساجد أو تحويل القبور إلى مساجد.

(٧) العمل على إعادة تكوين وبناء زاوية الإمام الأوزاعي في سوق الطويلة. وفق نمط معماري أثري، باعتبارها أقدم أثر ومعلم من معالم المسلمين في باطن بيروت، وباعتبارها من الأبنية الأثرية.

(٨) إطلاق اسم الإمام الأوزاعي على ثانوية رسمية أو معهد عالٍ رسمي باعتباره رمزاً من رموز الوحدة الوطنية، على غرار ما قام به المركز الإسلامي للتربية ـ الطريق الجديدة بإطلاق اسمه على كلية من كلياته، وهي كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، وكانت هذه أمنية من أماني المرحوم أنيس النصولي منذ عام ١٩٥٠.

(٩) استصدار طوابع بريدية بمناسبة هذه الذكرى تحمل اسم الإمام الأوزاعي، صادرة عن وزارة البريد والاتصالات السلكية واللاسلكية.

(١٠) تبني وزارة السياحة معلومات سياحية وأثرية عن الإمام الأوزاعي تضمن نشرات وزارة السياحة على غرار ما يحصل في دول العالم.

(١١) إطلاق اسم الإمام الأوزاعي على شارع هام من شوارع بيروت في المنطقة الشرقية أو في جبل لبنان، إضافة إلى الشارع المسمى باسمه في منطقة الحرج في بيروت الغربية وذلك اعترافاً بفضله وعلمه. أضف إلى ذلك أن التنظيمات الهندسية الجديدة في باطن بيروت يجب أن تأخذ بعين الاعتبار تسمية شارع أو ميدان أو ساحة باسم الإمام الأوزاعي باعتباره علماً من أعلام بيروت والعالم العربي والإسلامي.

وأخيراً لا يسعني إلاّ أن أختم هذه الدراسة بشعر العلامة الرحالة الشيخ عبد الغني النابلسي (المتوفى ١١٤٣ هـ) الذي زار بيروت بين ١٧٠٠ ـ ١٧١١ م، ومنها زيارته لمقام الأوزاعي حيث قال[٤٦]:

أتحفتنا زيارةُ الأوزاعي	عند بيروتَ بالضيا والشعاعِ
إذا قَصَدنا لها عشية يوم	كان فيه بمن أُحبُ اجتماعي
حضرة تملأ القلوبَ سروراً	وابتهاجاً بأمرِ رب مطاع
حضرةٌ نورُها يزيدُ فيهدي	في الدياجي بسرعةِ الالتماعَ
شطُ بحرٍ عليه للعلمِ بحرٌ	طافحٌ بالكمالِ والانتفاعَ
كان لله عابداً باجتهاد	تابعاً للكتابِ والإجماعَ
يا أبا عمروٍ الذي عمرتنا	زورةٌ منه عند خيرِ البقاعَ
يا أبا عمرو العظيمَ المزايا	عند ربِ الورى الكريمَ المساعيَ

وقال:

كنا ببيروت الأنيسةِ في الهنا	بالأكرمينَ ومُذ دعانا الداعي
نلنا المقاصدَ والمُنى وتوزعتْ	عنا الهُمُومُ بزورةِ الأوزاعي

(٤٦) النابلسي (الشيخ عبد الغني): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، ص ٨٥.

ملحق

كتاب

محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي (رضي الله عنه)(*)

كشفه ونشره

المغفور له

العلامة الأمير شكيب أرسلان

(رحمه الله)

(*) عن نسخة مخطوطة وجدت في مكتبة برلين نسخها الشيخ زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب (غفر الله له). أما مؤلِّفه فهو أحمد بن محمد الموصلي العاتكي، شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن زيد (٧٨٩ ـ ٨٧٠ هـ، ١٣٨٧ ـ ١٤١٥ م).

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه أستعين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى سائر الأصحاب والأنصار والأتباع، الذين عظم بهم الارتفاق والانتفاع، ورضي الله عمن أحبهم وترضى عنهم، وتبعهم واقتفى أثرهم، ولعن الله السباب الوقاع صلاة طيبة زاكية دائمة متصلة إلى يوم الحشر والاجتماع، وسلم تسليماً.

حياته، بيئته، وعلمه

أمَّا بعد، فهذه نبذ من مناقب الإمام أبي عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد ـ بضم الياء المثناة تحت وسكون الحاء المهملة وكسر الميم، كذا قيده ابن خطيب الدهشة وغيره ـ الأوزاعي. قال أبو زرعة الدمشقي: كان اسم الأوزاعي عبد العزيز فسمَّى نفسه عبد الرحمن، إن صحَّ هذا فيكون قد اختار أن يضيف نفسه إلى اسم الله تعالى الرحمن لتشمله الرحمة، ولم يرها أهلاً للعز تواضعاً منه. فلهذا رفعه الله تعالى وأعزه، كما قال النبي ﷺ: من تواضع لله رفعه الله تعالى. فالأوزاع بطن من حمير من ذي كلاع. قاله محمد بن سعد. ومحلة الأوزاع وهي قرية خارج باب الفراديس من قرى الشام، وقد اتصل بها العمران فجهلت، وهي في دمشق فيما يرى المحل الآن بالعقيبة الكبرى، والله أعلم. قال ابن جوصي إنما قيل له الأوزاعي لأنه من أوزاع القبائل رأى الحسن وابن سيرين. وقال ضمرة: قال: إنما قيل له الأوزاعي كنت محتلماً في خلافة عمر بن عبد العزيز. ولد في بعلبك سنة ثمان وثمانين، ونشأ بالبقاع يتيماً في حجر أمه. وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد، وتأدب بنفسه، فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار

وغيرهم أعقل منه، ولا آكثر صمتاً، ما تكلّم بكلمة إلاّ كان المتعين على من يسمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها. قال العباس بن الوليد: ما رأيت أبي يتعجب من شيء ما رآه في الدنيا تعجبه من الأوزاعي، كان يقول: سبحان الله يفعل ما يشاء. وكان الأوزاعي يتيماً فقيراً في حجر أمه، فخرجت به أمه من بلد إلى بلد إلى أن بلغته حيث رأيته. ثم يقول: يا بني عجزت الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدبه في نفسه، ما سمعت منه كلمة قط إلاّ احتاج مستمعها إلى إثباتها، ولا رأيته ضاحكاً قط حتى يقهقه. ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد أقول في نفسي: أيرى في المجلس قلب لم يبك؟ وقال بعضهم: رأيت الأوزاعي يعاني الرسائل والمكاتبة. وقد اكتتب مرة في بعث إلى اليمامة، فسمع الحديث من يحيى بن أبي كثير وانقطع عليه فأرشده إلى الرحلة إلى البصرة، فسمع من الحسن وابن سيرين. وقال إنه قد وجد الحسن قد توفي من شهرين، وابن سيرين أيضاً، فجعل يتردد لعيادته، فقوي به المرض ومات ولم يسمع منه شيئاً. ثم جاء فنزل دمشق بمحلة الأوزاع خارج باب الفراديس، وساد أهلها في زمانه، وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الإسلام. وقد أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم. وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين كمالك بن أنس والثوري والزهري وهو من شيوخه؛ وهذا من رواية الأكابر عن الأصاغر، فإن الزهري من التابعين، وليس الأوزاعي من التابعين. وقال الذهبي في الكاشف: عبد الرحمن بن عمرو شيخ الإسلام أبو عمرو الأوزاعي، الحافظ الفقيه الزاهد، أخذ عن عطاء ومكحول ومحمد بن ابراهيم ورأى محمد بن سيرين، وأخذ عنه قتادة ويحيى بن أبي كثير شيخاه، وابن عاصم والفريابي وكان رأساً في العلم والعبادة، ورقم له علامة الجماعة. يشير أنه روى له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وهم أصحاب الكتب الستة، أصول الإسلام، والله أعلم. وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة، وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته، وجلالته، وعلو مرتبته، وكمال فضيلته، وزهده وورعه وعبادته، وقيامه في الحق وكثرة صدقته، وفقهه وفصاحته، واتباعه السنّة ومجانبته البدعة، وإجلال الأئمة في زمانه في

سائر الأقطار، واعترافهم بارتفاع مرتبته وعلو شأنه. وقد بقي أهل دمشق وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مائتي سنة وعشرين سنة. قال مالك: كان الأوزاعي إمام أهل زمانه، وقد حج مرة فدخل مكّة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: افسحوا للشيخ، حتى أجلساه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه. وتناظر الأوزاعي والثوري في مسجد الخيف في مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه، فاحتج الأوزاعي على الرفع بما رواه عن الزهري عن سالم عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه في الركوع والرفع منه، واحتج الثوري على ترك ذلك بحديث يزيد بن أبي زياد عن ابن أبي ليلى عن البراء بن عازب رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه إذا افتتح - يعني الصلاة - ثم لا يعود، فغضب الأوزاعي وقال: أتعارض حديث الزهري بحديث يزيد بن أبي زياد وهو رجل ضعيف؟ فاحمرَّ وجه الثوري، فقال الأوزاعي: لعلك كرهت ما قلت. قال: نعم. قال: قم بنا حتى نتلاعن عند الركن أينا على الحق؟ فسكت الثوري. وكان الأوزاعي يرى وجوب الرفع في افتتاح الصلاة وعند الركوع والرفع منه. وقال سليمان الشاذكوني: سمعت سفيان بن عيينة يقول: اجتمع الأوزاعي والثوري بمنى فقال الأوزاعي للثوري: ألا ترفع يديك في خفض الركوع ورفعه؟ فقال الثوري: حدثنا يزيد بن أبي زياد. فقال الأوزاعي: أروي لك عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ وتعارضني بيزيد بن أبي زياد، ويزيد رجل ضعيف الحديث وحديثه مخالف للسنّة؟ قال: فاحمرَّ وجه سفيان. فقال الأوزاعي: كأنك كرهت ما قلت؟ قال الثوري: نعم. قال: فتبسّم الثوري لما رأى الأوزاعي احتدّ، أو هو كما قال، والله تعالى أعلم. وقال الحميدي وغيره: يزيد بن أبي زياد ساء حفظه في آخر عمره وخلط. وقد تذاكر مالك والأوزاعي مرة في المدينة من الظهر حتى صليا العصر، ومن العصر حتى صليا المغرب، فغمره الأوزاعي في المغازي، وغمره مالك في الفقه أو في شيء من الفقه. وقال ابن زياد: أفتى الأوزاعي في سبعين ألف مسألة يحدثنا وأخبرنا. وقال أبو زرعة: روي عنه ستون ألف مسألة. وقال غيرهما: أفتى في سنة ثلاث عشرة، وعمره إذ ذاك

خمس وعشرون سنة، ثم لم يزل يفتي حتى مات وعقله ذاك. وقال يحيى القطان عن مالك: اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة فقلت: أيهم الأصح؟ قال: الأوزاعي. وقال محمد بن عجلان: ما رأيت أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي. وقال غيره: ما رُؤي الأوزاعي ضاحكاً مقهقهاً قط. ولقد كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلاّ بكى بعينه أو بقلبه، وما رأيناه يبكي في مجلسه قط. وكان إذا دخل بيته بكى حتى يرحم، وهذا لكمال إخلاصه وهربه من الرياء، لا يبكي حيث يراه الناس ويبكي في الخلوة، أخذاً بقول النبي ﷺ: سبعة يظللهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله، منهم رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه. وقد كانت عيناه رحمه الله تفيض بدمع وأي دمع خصوصاً في الليل. دخلت امرأة من جيرانه على امرأته، فرأت الحصير التي يصلي عليها بالليل مبلولة، فقالت لها: لعل الصبي بال هاهنا، فقالت: هذا أثر دموع الشيخ من بكائه في سجوده. وقالت: هكذا تصبح كل يوم. وقد مدح الله البكائين من خشيته في عدة أماكن من كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾. وقال تعالى: ﴿وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبكياً﴾، فكان لهذا الإمام الجليل من كثرة البكاء في السجود حظ وافر، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري، وأبو حنيفة، ومالك والأوزاعي. وقال أبو حاتم: كان الأوزاعي ثقة متبعاً لما سمع. قالوا: وكان الأوزاعي لا يلحّن في كلامه، وكانت كتبه ترد على المنصور فينظر فيها ويتأمّلها، ويتعجّب من فصاحتها وحلاوة عبارتها. وقد قال المنصور يوماً لأحظى كتّابه عنده وهو سليمان بن مخلد: ينبغي أن تجيب الأوزاعي عن كتبه، فقال: والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على ذلك. وقال: لا على مثل كلامه ولا على كل شيء منه، وإنا لنستعين بكلامه نكاتب به إلى الآفاق إلى من لا يعرف أنه كلام الأوزاعي. وقال الوليد بن مسلم:

كان الأوزاعي إذا صلى الصبح جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، وكان يؤثر عن السلف ذلك، قال: ثم يقومون فيتذاكرون في الفقه والحديث. وقال عبد الملك بن محمد: كان الأوزاعي لا يكلّم أحداً بعد صلاة الفجر حتى يذكر الله تعالى، فإن كان أحد أجابه. وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: من صلى الصبح ثم جلس يذكر الله تعالى في مصلاه الذي صلى فيه حتى تطلع الشمس، كتب له أجر حجة وعمرة تامة تامة تامة. فكان الأوزاعي لكمال تمسكه بالسنّة وعمله بها يواظب على العمل بهذا الحديث. وقال محمد بن شعيب بن شابور: قال لي شيخ بجامع دمشق: أنا ميت في يوم كذا وكذا، فلما كان في ذلك اليوم رأيته في صحن الجامع يتفلّى، فقال لي: إذهب إلى سرير الموتى فأحرزه لي عندك قبل أن تسبق إليه، فقلت: ما تقول؟ فقال: هو كما أقول لك، إني رأيت كأن قائلاً يقول: فلان قدري وفلان كذا، وعثمان بن أبي العاتكة نعم الرجل، وأبو عمرو الأوزاعي خير من يمشي على وجه الأرض، وأنت ميت في يوم كذا وكذا. قال محمد بن شعيب: فما جاء الظهر حتى مات وصلينا عليه بعدها وأخرجت جنازته. ذكر ذلك كله ابن عساكر. وكان الأوزاعي كثير العبادة حسن الصلاة ورعاً ناسكاً كثير الصمت، كان يقول: من أطال القيام في صلاة الليل هوّن الله عليه طول القيام يوم القيامة. وكان أخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾. قال الوليد بن مسلم: ما رأيت أحداً أشد اجتهاداً من الأوزاعي في العبادة. وقال غيره: حج الأوزاعي فما نام على الراحلة، إنما هو في صلاة فإذا نعس استند إلى القتب. وكان من شدة الخشوع كأنه أعمى. وقال الأوزاعي: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسّنوه فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم. وقال: اصبر على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل ما قالوا، وكف عما كفُّوا، وليسعك ما وسعهم. وقد سأله الوليد بن مسلم عن أحاديث الصفات، فقال: ارووها كما جاءت ـ يعني من غير تشبيه ولا تعطيل ـ فإن الله عزّ وجلّ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وقال الأوزاعي: العلم ما جاء عن

أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجيء عنهم فليس بعلم. وكان يقول: لا يجتمع حب عثمان وعلي رضي الله عنهما إلاّ في قلب مؤمن. وقال: إذا أراد الله تعالى بقوم شرّاً فتح عليهم باب الجدل وسدَّ عنهم باب العلم والعمل.

صفاته وخصاله وتدينه

وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم، وكان له في بيت المال من الخلفاء إقطاع صار إليه من بني أمية. وقد وصل إليه من خلفاء بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار فلم يمسك منها شيئاً، ولا اقتنى شيئاً من عقار ولا غيره، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه، بل كان ينفق ذلك كله في سبيل الله تعالى وفي الفقراء والمساكين. ولما دخل عبد الله بن علي على السفاح الذي أجلى بني أمية عن الشام وأزال الله سبحانه وتعالى دولتهم على يديه فطلب الأوزاعي فتغيَّب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه، قال الأوزاعي: فدخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمُسوَّدة من يمينه وشماله معهم السيوف مطلقة، فسلَّمت عليه فلم يرد، ونكت بتلك الخيزرانة التي بيده ثم قال: يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن البلاد والعباد: أجهاد هو؟ قال: فقلت أيها الأمير: سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». قال: فنكَت بالخيزرانة أشد ما كان ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم، ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أُميّة؟ فقلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرىء مسلم إلاَّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة». فقال: فنكت بها أشد من ذلك، ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت: إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحلّ لك إلاّ بطريق شرعي. قال: فنكت أشد مما كان ينكت قبل

ذلك، ثم قال: ألا نولّيك القضاء؟ فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقّون عليَّ في ذلك، وإني أحب أن تتم ما ابتدأوني به من الإحسان. فقال: كأنك تحب الانصراف. فقلت: إن ورائي حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بسببي. قال: وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي. فأمرني بالانصراف، فلما خرجت إذا رسول من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال: يقول لك الأمير: استنفق بهذه، قال: فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفاً. قال: وكنت في تلك الأيام الثلاثة صائماً طاوياً. فيقال إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الفطر عنده فأبى أن يفطر عنده. وروى الحافظ أبو نعيم عن الأوزاعي قال: سألني عبد الله بن علي والمُسوَّدة قيام على رؤوسنا. قال رجل: قال الأوزاعي من دمشق فنزل بيروت مرابطاً بأهله وأولاده. قال الأوزاعي: وأعجبني في بيروت أني مررت بقبورها فإذا امرأة سوداء في القبور، فقلت لها: أين العمارة يا هنتاه، فقالت: إن أردت العمارة فهي هذه وأشارت إلى القبور، وإن كنت تريد الخراب فأمامك، وأشارت إلى البلد، فعزمت على الإقامة فيها، والله أعلم. وخرج الأوزاعي يوماً من مسجد بيروت، وهناك دكان فيه رجل يبيع عسلاً أو ناطفاً وإلى جانبه رجل يبيع البصل وهو يقول: يا بصل أحلى من العسل، أو قال: أحلى من الناطف. فقال الأوزاعي: سبحان الله سبحان الله! مرتين، أيظن هذا أن شيئاً من الكذب يباح؟ فكأن هذا ما يرى بالكذب بأساً. وقال الواقدي: قال الأوزاعي: كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، أما إذا صرنا أئمة يقتدى بنا فلا نرى أن يسعنا التبسم، وينبغي أن نتحفظ. وفي روايته للحافظ أبي نعيم قال الأوزاعي: كنا نمزح ونضحك، فأما إذا صرنا أئمة يقتدى بنا فما أرى يسعنا التبسم. وكتب الأوزاعي إلى أخ له: أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب، وإنه يسار بك في كل يوم وليلة مرحلتان، فاحذر الله والقيام بين يديه، وأن يكون آخر العهد بك، والسلام. وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس: سمعت صالحاً كاتب الليث يذكر عن الهقل بن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته: تقوّوا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء فيها قليل،

وأنتم عما قليل عنها راحلون، خلائف بعد القرون الماضية الذين استقبلوا من الدنيا أنفها وزهرتها فهم كانوا أطول منكم أعماراً، وأمد أجساماً، وأعظم إجلالاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، فخدَّدوا الجبال، وجابوا الصخور بالواد، وتنقلوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجساد كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طويت آثارهم، وتغيَّرت منازلهم وديارهم، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟ كانوا يتطلبون الدنيا ويطيلون الأمل آمنين، وعن ميقات يوم موتهم غافلين، فآبوا إياب قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون المتخلفون ينظرون في نعم الله وينظرون في نقمته وزوال نعمته عمن تقدمهم من الهالكين، ينظرون والله في مساكن خالية، قد كانت بالعز محفوفة، وبالنعم معروفة، والقلب إليها مصروف، والأعين إليها ناظرة، فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى، وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص ودنيا منقوصة، في زمان قد ولى عفوه، وذهب رخاؤه وصفوه، فلم يبق منه إلاَّ حمة شر، وصبابة كدر وأهاويل عبر، وعقوبات غير، وإرسال فتن، وتتابع زلات، ورذالة خلف، بهم ظهر الفساد في البر والبحر، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، بما يرتكبون من العار، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل، وغره طول الأجل، ولعبت به الأماني، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن إذا دعي بادر، وإذا نهي انتهى، وعقل مثواه، فهدى لنفسه. وقال العباس بن الوليد عن أبيه: كان الأوزاعي إذا ذكر النار لم يقطع ذكرها ولم يدع أحداً يسأله عن شيء حتى يسكت، فأقول بيني وبين نفسي: ترى بقي في المسجد أحد لم يتقطع قلبه حسرات؟ وقد كان الأوزاعي في الشام معظماً مكرماً، أمره أعز عندهم من إمر السلطان. وهدَّده بعض الولاة مرة فقال له أصحابه: دعه في الله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك.

وقال عبد الرزاق: أول من صنف ابن جريج وصنف الأوزاعي. قال إسماعيل بن عياش: سمعت الناس سنة أربع ومائة يقولون: الأوزاعي اليوم

عالم الأُمَّة. وقال محمد بن شعيب: قلت لأُميَّة بن يزيد: أَين الأوزاعي من مكحول؟ قال: هو عندنا أرفع من مكحول: إنه قد جمع العبادة والعلم والقول بالحق. وقال الإمام أحمد بن حنبل: دخل الثوري والأوزاعي على مالك، فلما خرجا قال مالك: أحدهما أكثر علماً من صاحبه ولا يصلح للأمامة ـ يعني سفيان ـ والآخر يصلح للأمامة، يعني الأوزاعي. قال أبو إسحق الفزاري: كان الأوزاعي رجل عامة ولو خيرت لهذه الأُمة لاخترت لها الأوزاعي ـ يعني إماماً وخليفة ـ والله أعلم. وقال الوليد بن مسلم: ما كنت أحرص على السماع من الأوزاعي حتى رأيت النبي ﷺ في المنام والأوزاعي إلى جنبه فقلت: يا رسول الله عمن نأخذ العلم؟ قال: عن هذا، وأَشار إلى الأوزاعي.

وقال عمر بن أبي سلمة التنيسي سمعت الأوزاعي يقول: رأيت كأن ملكين عرجا بي وأوقفاني بين يدي رب العزة، فقال: أنت عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر؟ فقلت: بعزتك ربِّ أنت أعلم. قال: فهبطا بي حتى ردَّاني إلى مكاني. رواه الحافظ أبو نعيم. وقال الوليد بن يزيد: كان الأوزاعي من العبادة على شيء لم نسمع بأحد قوي عليه، ما أتى عليه زوال قط إلاَّ وهو قائم يصلي. وقال إسحاق بن خالد: سمعت أبا مسهر يقول: كان الأوزاعي يتبسم أحياناً ولا يضحك، وكان يحيى الليل صلاة وقرآناً وبكاء. وأَخبرني بعض إخواني أَن أُمه كانت تدخل منزله وتتفقد موضع صلاته فتجده رطباً من دموعه في الليل. وقال عقبة بن علقمة وغيره: أُريدَ الأوزاعي على القضاء فامتنع فتركوه. وقال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً.

وروى أبو الفرج بن الجوزي عن عباس بن الوليد قال: أخبرني أبي قال: سمعت الأوزاعي يقول: ما من ساعة من ساعات الدنيا إلاَّ وهي معروضة على العبد يوم القيامة يوماً فيوماً وساعةً فساعة، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله فيها إلاَّ انقطعت نفسه عليها حسرات، فكيف إذا مرت به ساعة مع ساعة ويوم مع يوم وهو مقيم على الغفلة عن الله عز وجل معرض عن ذكره، تارك لشكره؟ أعاذنا الله تعالى من ذلك. وكان الأوزاعي يقول: الناس عندنا

أهل العلم، وأهل الجهل كالأنعام بل هم أضل سبيلاً. وقال بشر بن الوليد: رأيت الأوزاعي كأنه أعمى من الخشوع. وقال أحمد بن أبي الحواري: بلغني أن نصرانياً أهدى إلى الأوزاعي جرة عسل وقال له: يا أبا عمرو تكتب لي إلى والي بعلبك! يعني ليشفع له عنده. قال له الأوزاعي: إن شئت رددت الجرة وكتبت لك، وإلاّ قبلت الجرة ولم أكتب لك. قال: فرد الجرة وكتب له، فوضع عنه ثلاثين ديناراً. وإنما رد الهدية على الشفاعة خوفاً من الوقوع في الرياء، لما روى أبو داود عن أبي أُمامة رضي الله عنه أنه قال: من شفع لأحد شفاعة فأهدى له هدية عليها وقبلها، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الرياء.

وقال الأوزاعي: العافية عشرة أجزاء: تسعة منها صمْت، وجزء منها الهرب من الناس. وقال الأوزاعي: يأتي على الناس زمان، أقل شيء في ذلك الزمان أخ مؤنس، أو درهم من حلال، أو عمل في سنة. ويعني بالأخ: المؤمن بالله تعالى، والله أعلم. وقال الإمام العلامة أبو الفرج زين الدين ابن رجب رحمه الله في كتاب «أهوال القبور»: وروينا من طريق أبي إسحاق الفزاري أنه سأل نبّاشاً قد تاب كان ينبش القبور ويسرق الأكفان، فقال: أخبرْني عمن مات على الإسلام: ترك وجهه على ما كان أم لا؟ قال: أكثر ذلك حول وجهه عن القبلة. قال فكتب بذلك إلى الأوزاعي. فكتب إليَّ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثلاث مرات، أما من حول وجهه عن القبلة فإنه مات على غير السنة. وروى الإمام أبو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي في كتابه المسمى «بالحجة على تارك المحجة» بإسناده عن محمد بن كثير قال: كان على عهد هشام بن عبد الملك رجل قدري، فبعث هشام إليه فقال له: قد كثر كلام الناس فيك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، ادع من شئت فجادلني فإن أدركت علي بسبب فقد أمكنتك من علاوتي (يعني رأسه) فقال هشام: قد أنصفت، فبعث هشام إلى الأوزاعي، فلما حضر الأوزاعي قال له هشام: يا أبا عمرو ناظر لنا هذا القدري. فقال له الأوزاعي: اختر إن شئت ثلاث كلمات، وإن شئت أربع كلمات، وإن شئت واحدة. فقال له القدري: بل ثلاث كلمات. فقال الأوزاعي للقدري: أخبرني عن الله عز وجل: هل قضى على ما نهى؟ قال القدري: ليس عندي في هذا شيء. فقال الأوزاعي: هذه

واحدة. ثم قال الأوزاعي: أخبرني عن الله عز وجل: حال دون ما أمر؟ قال القدري: هذه أشد من الأولى، ما عندي في هذا شيء. فقال الأوزاعي: هذه اثنتان يا أمير المؤمنين، فقال الأوزاعي: أخبرني عن الله عز وجل: هل أعان على ما حرم؟ فقال القدري: هذه أشد من الأولى والثانية، ما عندي في هذا شيء. فقال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين هذه ثلاث كلمات. فأمر هشام فضربت عنقه. فقال هشام بن عبد الملك للأوزاعي: فسر لنا هذه الثلاث الكلمات ما هي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أما تعلم أن الله تعالى قضى على ما نهى؟ نهى آدم عن الأكل من الشجرة ثم قضى عليه بأكلها فأكلها. ثم قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين أما تعلم أن الله تعالى حال دون ما أمر؟ أمر إبليس بالسجود لآدم ثم حال بينه وبين السجود. ثم قال الأوزاعي: أما تعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى أعان على ما حرم؟ حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ثم أعان عليه بالاضطرار إليه. فقال له هشام: أخبرني عن الواحدة ما كنت تقول له: قال: كنت أقول له: أخبرني عن مشيئتك: مع مشيئة الله عز وجل، أو مشيئتك دون مشيئة الله عز وجل؟ فبأيها أجابني حل ضرب عنقه. قال: فأخبرني عن الأربع الكلمات ما هن؟ قال: كنت أقول له: أخبرني عن الله عز وجل حيث خلقك، خلقك كما شاء أو كما شئت؟ فإنه كان يقول: كما شاء. فأقول له: أخبرني عن الله عز وجل: يتوفاك إذا شئت أو إذا شاء؟ فإنه كان يقول: إذا شاء. فأقول له: أخبرني عن الله عز وجل إذا توفاك أين تصير: حيث شئت أو حيث شاء؟ فإنه كان يقول: حيث شاء. قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين من لم يمكنه أن يحسن خلقه، ولا يزيد في رزقه ولا يؤخر في أجله، ولا يصير نفسه حيث شاء، فأي شيء في يده من المشيئة يا أمير المؤمنين؟ قال: صدقت يا أبا عمرو. ثم قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين إن القدرية ما رضوا بقول الله تعالى، ولا بقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا بقول أهل الجنة، ولا بقول أهل النار، ولا بقول الملائكة، ولا بقول أخيهم إبليس. فأما قول الله تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وأما قول الملائكة: «لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا». وأما قول الأنبياء فقال شعيب عليه السلام: «وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» وقال

ابراهيم عليه الصلاة والسلام: «لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ». وقال نوح عليه السلام: «وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ الله يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ». وأما قول أهل الجنة فإنهم قالوا: «الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله». وأما قول أهل النار: «لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ» وأما قول إبليس: «رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي». وخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يُفْتَحُ أَبْوَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَ ٱلإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ ٱلْخَمِيسِ فَيَغْفِرُ الله لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بالله شَيْئاً إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّىٰ يَصْطَلِحَا». قال الإمام العلاّمة زين الدين بن رجب: وقد فسر الأوزاعي هذه الشحناء المانعة من المغفرة بالذي في قلبه شحناء لأصحاب النبي ﷺ، ولا ريب أن هذه الشحناء أعظم جرماً من مشاحنة الأقران بعضهم بعضاً. قال: وعن الأوزاعي أنه قال: المشاحن: كل صاحب بدعة فارق عليها الأمة. انتهى. وفي تاريخ ابن عساكر عن الأوزاعي قال: مر يونس بن ميسرة حلبس بالمقابر بباب توما فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، فرحمنا الله وإياكم، وغفر لنا ولكم، فكأننا صرنا إلى ما صرتم إليه. فرد الله الروح إلى رجل منهم فأجابه: فقال: طوبى لكم يا أهل الأرض حين تحجون في الشهر أربع مرات، قال: وإلى أين يرحمك الله؟ قال: إلى الجمعة، أما تعلمون أنها جمعة مبرورة متقبلة؟ قال: ما خير ما قدمتم؟ قال: الاستغفار يا أهل الدنيا، قال: فما يمنعك أن ترد السلام؟ قال: يا أهل الدنيا: السلام حسنة، والحسنات قد رفعت عنا، فلا حسنة تزيد ولا حسنة تنقص، وهي ثنايا أهلِ الدنيا. وقال إسحاق بن راهويه في مسندهِ: حدثنا بقية بن الوليد قال: حدثنا الأوزاعي عن أبي يزيد قال: قال رسول الله ﷺ: أَكْثَرُ أُمَّتِي دُخُولاً ٱلْجَنَّةَ ٱلْبُلْهُ. سألت الأوزاعي عن البله، فقال: الذين يعرفون الخير ولا يعرفون الشر. هذا حديث مرسل. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا حماد بن محمد الفزاري، قال: بلغني عن الأوزاعي أنه سأله رجل بعسقلان على الساحل فقال له: يا أبا عمرو نرى طيوراً سوداً تخرج من البحر، فإذا كان العشي عاد مثلها بيضاً. قال: وفطنتم لذلك؟ قال: نعم. قال: تلك طيور في حواصلها

أرواح آل فرعون يعرضون على النار فتلفحها النار، فذلك دأبها حتى تقوم الساعة فيقال: «أدخلوا آل فرعون أشد العذاب».

عظات الإمام الأوزاعي لأبي جعفر المنصور وملامح من رواياته

وقد اجتمع الأوزاعي بالمنصور حين قدم الشام ووعظه، وأحبه المنصور وعظمه. ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه أن لا يلبس السواد، فأذن له، فلما خرج قال المنصور للربيع الحاجب: إلحقه فاسأله لِمَ كره لبس السواد؟ ولا تعلمه أني قلت لك. فسأله الربيع، فقال: لأني لم أَرَ مُحْرِماً أحرم فيه، ولا ميتاً كفن فيه، ولا عروساً جُلِّيت فيه، فلهذا أكرهه. وقال عبد الوهاب ابن نجدة: حدثنا أبو الأسواري محمد بن عمرو التنوخي قال: كتب أبو جعفر المنصور للأوزاعي: أما بعد فقد جعل أمير المؤمنين في عنقك ما جعل الله لرعيته قبلك في عنقه، فاكتب إليه بما رأيت فيه المصلحة. فكتب إليه: أما بعد فعليك يا أمير المؤمنين بتقوى الله عز وجل، وتواضع يرفعك الله تعالى يوم يضع المتكبرين في الأرض بغير الحق، واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله تعالى عليك إلاّ وجوباً. قال الحافظ أبو نعيم: حدثنا ابراهيم بن عبد الله قال حدثنا محمد بن إسحاق ابن ابراهيم.

حدثنا أبو السعيد التغلبي قال: لما خرج ابراهيم ومحمد علي أبي جعفر المنصور، أراد أهلَ الثغور أن يعينوه عليهما فأبوا ذلك، فوقع في يد ملك الروم الألوف من المسلمين أَسرى، وكان ملك الروم يحب أن يفادي بهم ويأبى أبو جعفر. فكتب الأوزاعي إلى أبي جعفر كتاباً: أما بعد فإن الله تعالى استرعاك هذه الأمة لتكون فيها بالقسط قائماً، وبنبيه ﷺ في خفض الجناح والرأفة متشبهاً، وأسأل الله تعالى أن يسكن على أمير المؤمنين دهماء هذه الأمة ويرزقه رحمتها، فإن سائخة المشركين التي غلبت عام أول، وموطئهم حريم المسلمين، واستنزالهم العواتق والذراري من المعاقل والحصون، كان ذلك بذنوب العباد، وما عفا الله أكثر. فبذنوب العباد استنزلت العواتق والذراري من المعاقل والحصون لا يلقون لهم ناصراً، ولا

عنهم مدافعاً، كاشفات عن رؤوسهن وأقدامهن، فكان ذلك بمرأى ومسمع، وحيث ينظر الله تعالى إلى خلقة أعراضه وأعراضهم، فليتق الله أمير المؤمنين، وليبتغ بالمفاداة بهم من الله سبيلاً، وليخرج من حجة الله، فإن الله تعالى قال لنبيه: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ والله يا أمير المؤمنين ما لهم يومئذٍ فيء موقوف، ولا ذمة تؤدي خراجاً إلاَّ خاصة أموالهم. وقد بلغني رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لأسمع بكاء الصبي في الصلاة فأتجوز فيها مخافة أن تفتن أمه» فكيف بتخليتهم يا أمير المؤمنين في أيدي العدو يمتهنونهم ويتكشفون منهم ما لا تستحله إلاَّ بنكاح، وأنت راعي الله، والله تعالى فوقك، ومستوف منك ﴿ونَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ فلما وصل إليه كتابه أمر بالفداء.

وروى الحافظ أبو نعيم أيضاً من حديث محمد بن مصعب القرقساني قال: حدثني الأوزاعي قال: بعث إليّ أبو جعفر أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه سلمت عليه فرد عليّ السلام واستجلسني ثم قال: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قلت: وما الذي يريده أمير المؤمنين؟ قال: أُريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم. قلت: انظر لا تجهل شيئاً مما أقول. قال: وكيف لا أجهله وأنا أسألك عنه، وقد وجهت فيه إليك، وأقدمتك له؟ قلت: أن تسمعه لا تعمل به. قال: فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف. فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا عقوبة. فطابت نفسي وانبسطت في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين! حدثني مكحول عن عطية بن بسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه، فإن بلها بشكر وإلاَّ كانت حجة عليه من الله تعالى، ليزداد بها إثماً، ويزداد الله عليه بها سخطاً». يا أمير المؤمنين! حدثني مكحول عن عطية بن بسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما والٍ بات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة». يا أمير المؤمنين! من كره الحق فقد كره الله، إن الله هو الحق المبين. يا أمير المؤمنين! إن الذي يلين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أُمورهم لقرابتكم من نبيكم ﷺ، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً مواسياً نفسه بهم

في ذات يده، وإنك عند الناس لحقيق أن تقوم فيهم بالحق، وأن تكون بالقسط فيهم قائماً، ولعوراتهم ساتراً، لم تغلق عليك دونهم الأبواب، ولم تقم عليك دونهم الحجاب، تبتهج بالنعم عندهم، وتبتئس بما أصابهم من سوء. يا أمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت ملكهم: أحمرهم وأسودهم، ومسلمهم وكافرهم، فكل له عليك نصيبه من العدل، فكيف إذا اتبعك منهم فئام وراءهم فئام ليس فيهم أحد إلاَّ وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه؟ يا أمير المؤمنين! حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال: كانت بيد النبي ﷺ جريدة يتسلك بها ويروع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قرون أمتك وملأت قلوبهم رعباً؟ فكيف بمن شق أبشارهم وسفك دماءهم، وخرب ديارهم، وأجلاهم عن بلادهم، وغيبهم بالخوف منه. يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن زياد بن حارثة عن حبيب بن مسلمة أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدشة خدش أعرابياً لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً ولا متكبراً. فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: اقتصّ مني. فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي، ما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أَتتْ على نفسي، فدعا له بخير. يا أمير المؤمنين، رض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله ﷺ: «لقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها». يا أمير المؤمنين! إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقى لك كما لا يبقى لغيرك. يا أمير المؤمنين! تدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾؟ قال: الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن؟ يا أمير المؤمنين! بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات (ضيعة) لخشيتُ أن أُسأل عنها. فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك؟ يا أمير المؤمنين! تدري ما جاء في تفسير هذه الآية عن جدك: ﴿يَا دَاوُد إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ

بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولاَ تَتبعِ الهَوَىٰ﴾؟ قال: يا داود إذا قعد اثنان بين يديك فكان لك في أحدهما هوىً فلا تمنَّين في نفسك أن يكون له الحق فيفلج على صاحبه فأمحوك من نبوّتي ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة. يا داود إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل، لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسير، ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء. يا أمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر عظيم لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه. يا أمير المؤمنين، حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلاً على الصدقة فرآه بعد أيام مقيماً، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله عز وجل؟ قال: لا. قال عمر: وكيف؟ قال: قال لأنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئاً إِلاَّ أُتِيَ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ عَلَى جِسْرٍ فِي النَّارِ فَيَنْتَفِضُ بِهِ ٱلْجِسْرُ ٱنْتِفَاضاً يُزِيلُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِهِ، ثُمَّ يُعَادُ فَيُحَاسَبُ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِناً نَجَا بِإِحْسَانٍ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئاً ٱنْخَرَقَ بِهِ ذَٰلِكَ الجِسْرُ فَهَوَىٰ بِهِ فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: مِمَّنْ سَمِعْتَ هٰذَا؟ قَالَ مِنْ أَبِي ذرٍ وسلمان رضي الله عنهما. فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ. فقال عمر: واعمراها يتولاها بما فيها! فقال أبو ذر: من سَلَتَ الله أنفه وألصق خده بالأرض. فأخذ أبو جعفر المنديل فوضعه على وجهه فبكى وانتحب حتى أبكاني. فقلت: يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبيَّ ﷺ إمارة على مكة والطائف فقال له: يا عباس، يا عم النبي! إمارة تحييها خير من إمارة لا تحصيها. هي نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذا أوحى الله إليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: «يَا عَبَّاسُ يَا صَفِيَّةُ عَمَّةُ النبي وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ النَّبي! إني لستُ أُغْني عَنْكُمْ مِنَ الله شَيْئاً، أَلاَ لي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ» وقد قال عمر رضي الله عنه: لا يقيم أمر الناس إلاَّ حصيف العقل أرب العقدة لا يطلع منه على عورة ولا يحتو على خَرْبَة ولا تأخذه في الله لومة لائم. وقال: السلطان أربعة أمراء: فأمير قوي طلق نفسه وعماله، فذاك المجاهد

في سبيل الله، يد الله عليه باسطة بالرحمة. وأمير فيه ضعف طلق نفسه وأرتع عماله بضعف، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله. وأمير طلق عماله وأرتع نفسه، فذاك الحُطَمَة الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «شَرُّ الرِّعَاءِ الحُطَمَةُ» فهو الهالك. وأمير أرتع عماله ونفسه فهلكوا جميعاً. وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: أتيتك حين أمر الله تعالى بمنافيخ فوضعت على النار تسعر إلى يوم القيامة، فقال له: يا جبريل صف لي النار، فقال: إنَّ الله أمَرَ بِهَا أُوقِدَتْ أَلْفَ عَامٍ حَتَّىٰ احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اصْفَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّىٰ اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ لَا يُضِيءُ لَهَبُهَا وَلاَ جَمْرُهَا. وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ أَنَّ ثَوْباً مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ أُظْهِرَ لِأَهْلِ ٱلْأَرْضِ لَمَاتُوا جَمِيعاً، وَلَوْ أَنَّ ذُنُوباً مِن شَرَابِهَا صُبَّ فِي مَاءِ الأَرْضِ جَمِيعاً لَقَتَلَ مَنْ ذَاقَهُ، وَلَوْ أَنَّ ذِرَاعاً مِنَ السِّلْسِلَةِ الَّتِي ذَكَرَ الله تَعَالى وُضِعَ عَلَىٰ جِبَالِ الأَرْضِ لَذَابَتْ وَمَا اسْتَقَرَّتْ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ النَّارَ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا لَمَاتَ أَهْلُ الأَرْضِ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِ وَتَشْوِيهِ خَلْقِهِ وَعِظَمِهِ، فَبَكَى النَّبِيُّ ﷺ وَبَكَى جبْرِيلُ لِبُكَائِهِ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: أَتَبْكِي يَا مُحَمَّدُ وَقَدْ غَفَرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَوَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟» قال: ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين: أمين الله على وحيه؟ قال: أخاف أن أبتلي بما ابتلي به هاروت وماروت، فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي عز وجل فأكون قد أمنت مكره. فما زالا يبكيان حتى نوديا من السماء: أن يا جبريل ويا محمد إن الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما، ففضل محمد على الأنبياء كما فضل جبريل على ملائكة السماء كلهم. وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب قال: اللّهمّ إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين. يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام بحق الله، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى. إنه من طلب العز بطاعة الله تعالى رفعه الله تعالى، ومن طلبه بمعصيته أذله الله تعالى ووضعه. هذه نصيحتي والسلام عليك. ثم نهضت، فقال: إلى أين؟ فقلت: إلى البلد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى، فقال: قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك،

وقبلتها بقبول حسن، والله الموفق للخير والمعين عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكل، وهي حسبي ونعم الوكيل، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثل هذا، فإنك المقبول غير المتهم في النصيحة. قلت: أفعل إن شاء الله تعالى. قال محمد بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله. وقال: أنا في غنى، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا ولا بكلها. وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في رده. وروى الحافظ أبو نعيم أن الأوزاعي كتب إلى الحكم بن غيلان القيسي: قد أحببت ـ رحمك الله وإيانا ـ أن نقفك على ما علمنت من المراء وإِن كان على ما تعلم فيه، وأن تجعل لمعادك في طرفي نهارك نصيباً، ولا يستفزنَّك إيثار غيره، ودع امتحان من اتهمت، وضع أمره على ما ظهر لك منه، فإن ستر عنك خلافه فاحمد الله على عافيته، وإن عرض لك بدعة فاعرض عن بدعته، ودع من الجدل ما يغير القلب ويزيد الضغينة ويُرِقُّ الورع، ولا تكن ممن يمتحن من لقي بأوابد وما عسى أن يفتري به أحد، وليكن ما كان منك على سكينة وتواضع تريد به الله تعالى، وليعنك ما عنى الصالحين قبلك، فإنه قد أعظمهم ثقل الساعة، فجرت على خدودهم من الخشوع الدموع، وطووا من خوف على ظمأ مناهلهم، عناؤهم على أنفسهم، وراحتهم على الناس. نسأل الله أن يرزقنا وإياك علماً نافعاً، وخشوعاً يؤمننا به من الفزع الأكبر، إنه أرحم الراحمين، والسلام عليك. وروى الحافظ أبو نعيم أيضاً أن الأوزاعي قال: قال سليمان عليه السلام لابنه: يا بني عليك بخشية الله تعالى فإنها غليت كل شيء. قال: وبلغني أن سليمان عليه السلام قال: يا معشر الجبابرة كيف تصنعون إِذا وضع الميزان لفصل القضاء؟. وقال سليمان عليه السلام: كل عمى ولا عمى القلب. وقال سليمان عليه السلام: لهو العلماء خير من حكمة الجهلة. وروى الحافظ أبو نعيم أيضاً أن الأوزاعي قال: بلغني أنه ما وعظ رجل قوماً عِظة لا يريد بها وجه الله إلاّ زلّت عن القلوب ما يزلّ الماء عن الصفا. وقال الأوزاعي: إن المؤمن يقول قليلاً ويعمل كثيراً. وإن المنافق يقول كثيراً ويعمل قليلاً. وقال الأوزاعي: بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره، أو قال: إلى أن يبعث من قبره وقال الأوزاعي: بلغني أن في السماء ملكاً ينادي كل

يوم: ألا ليت الخلائق لم يُخلَقوا، ويا ليتهم إذ خلقوا عرفوا لمَ خلقوا، وجلسوا فذكروا ما عملوا، يعني فندموا واستغفروا. وروى الحافظ أبو نعيم أيضاً عن الأوزاعي أنه كان يقول: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون لهم بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله عز وجل. وقال الأوزاعي: من أكثر من ذكر الموت كفاه اليسير، ومن علم أن منطقه من عمله قلّ كلامه. وقال أبو حفص: سمعت سعيد بن عبد العزيز يقول: ما جاءنا الأوزاعي بشيء أعجب إلينا من هذا. وروى الحافظ أبو نعيم أن محمد بن الأوزاعي قال: قال لي أبي: لو قبلنا من الناس كل ما يعطوننا لهنّا عليهم. وقال الحافظ أبو نعيم أيضاً: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن قال: حدثنا كثير ابن موسى، قال: حدثنا معاوية بن عمر، قال: حدثنا أبو إسحاق الفزاري، قال: قال الأوزاعي: اصبر بنفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعه، ولا يستقيم الإيمان إلاّ بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلاّ بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلاّ بنية موافقة للسنة. قال: وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، فالعمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم جامع، فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق ذلك بعمله، فتلك العروة الوثقى لا انفصام لها، ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدق بعمله، لم يقبل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين. قال الحافظ أبو نعيم: كان الأوزاعي يكثر كلامه ومواعظه ورسائله، وهو أحد أئمة الدين وأعيان الإسلام، اقتصرنا من أخباره على ما ذكرناه. ثم ذكر الحافظ أبو نعيم عن الأوزاعي أحاديث، منها قال: حدثنا سليمان بن أحمد قال: حدثنا الحسن بن جرير الصوري، قال اسماعيل بن أبي الزناد من أهل وادي القرى قال: حدثني إبراهيم شيخ من أهل الشام عن الأوزاعي، قال: قدمت المدينة فسألت محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن قوله عز وجل: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقال: نعم حدثنيه أبي عن جده علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال: سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «لأُبَشِّرَنَّكَ بِهَا يا عليُّ فبشِّر بها أُمَّتي مِنْ بَعْدِي: الصَّدَقَةُ على وَجْهِها، واصْطِنَاعُ ٱلْمَعْرُوفِ، وَبِرُّ ٱلْوَالِدَيْنِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ، تُحَوِّلُ الشَّقَاءَ سعادةً، وتَزِيدُ في ٱلْعُمُرِ، وتَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ». قال الحافظ: غريب تفرَّد به اسماعيل بن أبي الزناد وابراهيم بن أبي سفيان. قال أبو زرعة: سألت أبا مسهر عنه فقال: من ثقات مشايخنا وقدمائهم. وروى أيضاً بسنده عن الأوزاعي عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال: «قيلَ يا رَسُولَ اللهِ ما برُّ ٱلْحَجِّ؟ قال: إطْعَامُ الطَّعَامِ وَطِيبُ ٱلْكَلَامِ» وقد أحببت أن أروي بسند عن هذا الإمام حديثاً عن النبي ﷺ لأتشرَّف بدخوله في سندي تبركاً بذلك: أخبرني بجميع صحيح الإمام الحافظ المتقن أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري غير واحد من شيوخي منهم الشيخ الإمام العلامة الحافظ قاضي القضاة جمال المحدثين وصدر العلماء أبو العباس شهاب الدين أحمد بن حجا بن موسى الحسباني الشافعي قراءة عليه وأنا أسمع، سنة عشر وثمانمائة وبقراءتي عليه وهو يسمع ثانياً من أوله إلى أثناء باب علامات النبوة في الإسلام، في مجالس آخرها خامس جمادى الأولى سنة أربع عشرة وثمانمائة، قال: أخبرنا به جماعة من شيوخنا منهم الشيخان المسندان مجد الدين أبو العباس أحمد بن العفيف أبي عبد الله بن محمد وأبو اسحاق ابراهيم بن الضياء أحمد بن الإمام أبي اسحاق ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندراني الدمشقيان قراءة عليهما وأنا أسمع، وآخرون إجازة، قالوا: أخبرنا الشيخ المسند شهاب الدين أبو عبدالله محمد بن أبي العز بن شرف بن بيان الأنصاري البزاز الدمشقي قراءة عليه ونحن نسمع، قال: أخبرنا الشيخ سراج الدين أبو عبدالله الحسن بن المبارك بن محمد بن يحيى بن الزبيدي البغدادي، قال: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن اسحاق بن ابراهيم السجزي الصوفي قراءة عليه ونحن نسمع ببغداد في آخر سنة اثنتين وأول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، قال: أخبرنا جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن داود الداودي البوشنجي قراءة عليه ببوشنج في ذي القعدة سنة خمس وستين وأربعمائة قال: أخبرنا الإمام محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي قراءة عليه

في صفر سنة إحدى وثمانين وثلثمائة، قال: أخبرنا الإمام أبو عبدالله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفِرَبْري بفربر سنة ست عشرة وثلثمائة، قال: أخبرنا الإمام الحافظ حجة الإسلام أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي مولاهم البخاري، قال: حدثنا أبو القاسم خالد بن خليل قاضي حمص، قال: حدثنا محمد بن حرب قال: قال الأوزاعي: أخبرنا الزهري عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقائه، فمر بهما أبي بن كعب رضي الله عنه، فدعاه ابن عباس فقال: تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقائه، هل سمعت رسول الله يذكر شأنه؟ فقال: أي نعم، سمعت رسول الله يذكر شأنه يقول: «بَيْنَما مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ في مَلأٍ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ إذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَداً أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: أ. فَأَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى مُوسَى: بَلَى عَبْدُنَا الْخَضِرُ. فَسَأَلَ السَّبِيلَ إلى لِقَائِهِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، وَكَانَ مُوسَى يَتْبَعُ أَثَرَ ٱلْحُوتِ في ٱلْبَحْرِ، فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى: «أَرَأَيْتَ إذْ أَوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» قال موسى: «ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً». فَوَجَدَا ٱلْخَضِرَ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في كِتَابِهِ».

ولنذكر حديثاً آخر من طريق الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى، أخبرنا بجميع صحيحه بقراءتي عليه وهو يسمع بجامع دمشق في مجالس آخرها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة للشيخ الإمام العالم العامل الزاهد الورع بقية السلف الصالح أبي الحسن علاء الدين علي بن الحسين بن عروة المشرقي ثم الدمشقي، قال: أخبرنا الشيخ الإمام العالم العلامة أبو زكريا محيي الدين بن يحيى بن يوسف بن يعقوب، قال: أخبرنا الإمام الحافظ شيخ المحدثين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن

يوسف القضاعي المزي، قال: أخبرنا المشايخ الخمسة: الحافظ جمال الدين أبو حامد بن علي بن محمود بن الصابوني، وأمين الدين محمد أبو القاسم بن أبي بكر الأربدي، وشمس الدين أبو بكر بن عمر بن يونس المزني، ورشيد الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن محمد بن محمد بن سليم العامري قراءة على كل واحد منهم ونحن نسمع، وتاج الدين أبو عبدالله محمد بن عبد السلام بن المطهر بن الإمام أبي سعيد بن أبي عصرون التميمي بقراءتي عليه، قال الأربدي: أنبأنا أبو الحسن المؤيد بن محمد بن علي الطوسي قراءة عليه ونحن نسمع بنيسابور. وقال ابن الصابوني وابن عصرون: أنبأنا المؤيد الطوسي في كتابه إلينا من نيسابور، قال: أخبرنا فقيه الحرم أبو عبدالله محمد بن الفضل الصاعدي قراءة عليه ونحن نسمع. وقال أبو بكر بن عمر المزني ومحمد بن أبي بكر العامري وأبو حامد بن الصابوني أيضاً قال: أخبرنا القاضي جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الخرستاني الأنصاري قراءة عليه ونحن نسمع، قال: أخبرنا أبو الفضل أبو عبدالله محمد بن الفضل الفراوي في كتابه إلينا من نيسابور، قال: أخبرنا الشيخ الزكي أبو الحسين عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر الفارسي. قال: أخبرنا أبو أحمد محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودي، قال: سمعت أبا اسحاق ابراهيم بن محمد بن سفيان يقول: سمعت مسلم بن الحجاج يقول: حدثني سلمة بن شبيب قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا الأوزاعي عن اسحق بن عبدالله عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ بِرِدَائِهِ جَذْبَةً شَدِيدَةً، فَنَظَرْتُ إلى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللهِ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ ٱلْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ جُدْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ». وفي رواية: «ثُمَّ جَذَبَهُ إِلَيْهِ جَذْبَةً رَجَعَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ في نَحْرِ الأَعْرَابِيِّ» وفي رواية: «فَجَذَبَهُ حَتَّى انْشَقَّ ٱلْبُرْدُ حَتَّى بَقِيَتْ حَاشِيَتُهُ في عُنُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». وقد أخبرني بصحيح مسلم غير واحد من الشيوخ، ولكن اقتصرت على هذا الإسناد، ولولا خشية الإطالة لرويت عن كل واحد من أصحاب السنن الأربعة حديثاً بإسناد ليكون فيه الأوزاعي،

لأن الأوزاعي روى له أصحاب الكتب الستة كما تقدَّم ذكره. ونسأل الله تعالى القبول والجبر، وأن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا، إنه غفور رحيم. ومن محاسن ما رواه الأوزاعي من أخبار الصالحين الصابرين على البلاء، الراضين عن القضاء، ما رواه أبو العباس أحمد بن مسروق. قال: حدثنا محمد بن الحسين، قال: حدثني موسى بن عيسى عن الوليد بن مسلم عن أبي عمرو الأوزاعي، قال: حدثني بعض الحكماء، قال: خرجت وأنا أريد الرباط، حتى إذا كنت بعريش مصر إذ أنا بمظلة فيها رجل وقد ذهبت عيناه واسترسلت يده ورجله وهو يقول: الحمد لله سيدي ومولاي، اللهم إني أحمدك بجميع محامدك كلها حمداً يوافي محامد خلقك كفضلك على سائر خلقك إذ فضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً. فقلت: والله لأسألنه وأعلمن ما ألهمه إليها، فدنوت منه وسلَّمت عليه، فردَّ السلام، فقلت له: رحمك الله إني مسائلك عن شيء فتخبرني به أم لا؟ فقال: إن كان عندي منه علم أخبرتك به. فقلت: يرحمك الله، على أي نعمة تحمده أم على أي فضل من فضائله تشكره؟ فقال: أوَلَيس ترى ما قد صنع بي؟ فقلت: بلى، فقال: والله لو أن تبارك وتعالى صبَّ عليَّ من السماء ناراً تحرقني، وأمر الجبال فدمَّرتني، وأمر الجبال فخسفت بي ما ازددت له سبحانه وتعالى إلاَّ حباً، ولا ازددت له إلاَّ شكراً! وإن لي إليك حاجة فتقضيها لي؟ قلت: نعم قل ما تشاء، فقال: بُنيٌّ لي كان يتعهدني أوقات صلاتي، ويطعمني عند إفطاري، وقد فقدته من أمس، فانظر هل تجيء به لي؟ قال: فقلت في نفسي: إن في قضاء حاجته لقربة إلى الله تعالى. وقمت وخرجت في طلبه حتى إذا صرت بين كثبان الرمل إذ أنا بسبع قد افترس الغلام يأكله، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! كيف آتي العبد الصالح بخبر ابنه؟ قال: فانتبه وسلَّمت عليه فردَّ عليَّ السلام. فقلت: يرحمك الله، إن سألتك عن شيء تخبرني به؟ فقال: إن كان عندي منه علم أخبرتك به. قال: فقلت: أنت أكرم على الله عز وجل وأقرب منزلة منه أم نبيّ الله أيوب عليه السلام، فقال: بل أيوب عليه السلام أكرم على الله مني وأعظم عنده درجة. فقلت: ابتلاه الله فصبر حتى استوحش منه من كان يأنس به، وكان غرضاً لمرَّار الطريق. واعلم أن ابنك الذي

أخبرتني عنه وسألتني اطلبه لك افترسه السبع، فعظم الله أجرك فيه. فقال: الحمد لله الذي لم يجعل في قلبي حسرة من الدنيا، ثم شهق وسقط على وجهه، فجلست عنده ساعة ثم حركته فإذا هو ميت، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! كيف أعمل في أمره، ومن يعينني على غسله وتكفينه ودفنه؟ فبينما أنا كذلك إذ أنا بركب يريدون الرباط، فأشرت إليهم فأقبلوا نحوي حتى وقفوا عليّ فقالوا: من أنت وما هذا؟ فأخبرتهم بقصتي فعقلوا رواحلهم وأعانوني حتى غسلناه بماء البحر، وكفّناه بأثواب كانت معهم، وتقدّمت أنا فصلّيت عليه مع الجماعة، فدفناه في مظلته، وجلست عند قبره أُنساً به أقرأُ القرآن إلى أن مضى من الليل ساعات، فغفوت غفوة فرأيت صاحبي في أحسن صورة وأجمل رؤيا: في روضة خضراء عليه ثياب خضر قائماً يتلو القرآن، فقلت له: ألست صاحبي؟ قال: بلى. فقلت: فما الذي صيَّرك إلى ما أرى؟ فقال: اعلم أني وردت مع الصابرين لله عز وجل في درجة لم ينالوها إلاّ بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء. وانتبهت. قال الأوزاعي: فكنت أُحب البلاء مذ حدثني الحكيم بهذا. قال الجوهري: المظلة بالكسر: البيت الكبير من الشعر.

في ذكر بعض ما اختاره الأوزاعي من المسائل الفقهية

اختار رحمه الله تعالى جواز الوضوء بالنبيذ. وهو الماء المنقوع فيه التمر ونحوه، لما روى عن عبدالله بن مسعود أنه كان مع النبي ﷺ ليلة النحر فأراد أن يصلي الفجر فقال: معك وضوء؟ فقلت: لا، معي إداوة فيها نبيذ. فقال ﷺ: «تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ». رواه أبو داود. واختار رحمه الله أن الماء إذا لاقته نجاسة فلم يتغير لم يتنجس قلّ أو كثر، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد، لحديث بئر بضاعة: أن النبي ﷺ سئل عن الوضوء منها ـ وكان يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ـ فقال ﷺ: «المَاءُ طَهُورٌ لاَ يُنَجِّسُهُ شَيءٌ». قال الإمام أحمد: حديث بضاعة صحيح. واختار الأوزاعي أن سؤر الكلب والخنزير طاهر يتوضأ به ويشرب، وإن ولغا في طعام لم يحرم أكله. وهذا مذهب الإمام مالك، ومذهب الزهري شيخ مالك،

والأوزاعي. واختار في السهو ما اختاره مالك: إن كان السهو نقصاً في الصلاة فسجوده قبل السلام، وإن كان زيادة فسجوده بعد السلام. وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد. واختار أن من أكل وشرب في الصلاة ناسياً تفسد صلاته فرضاً كانت أو نفلاً، لأنه فعل مبطل من غير جنس الصلاة فاستوى عمده وسهوه. واختار رحمه الله أن أسفل الخف والحذاء إذا أصابته نجاسة فدلكها في الأرض حتى زالت عين النجاسة، أجزأه ذلك، وتباح الصلاة فيه. وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، أخذاً بما روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا وَطِيءَ أَحَدُكُمْ بِنَعْلِهِ الأَذَى فَإِنَّ التُّرَابَ لَهُ طَهُورٌ» أو في لفظ «إِذَا وَطِيءَ الأَذَى الْخَفِيَّةَ فَطَهُورُهَا التُّرَابُ» رواه أبو داود. واختار رحمه الله أن الاستفتاح في صلاة العيد يكون بعد التكبيرات. واختار أن غسل الجمعة يجزىء قبل الفجر من يومها. واختار أن المشي خلف الجنازة أفضل، وأن المسبوق في صلاة الجنازة يسلم مع الإمام ولا يقضي ما فاته. واختار أن المجامع في رمضان عامداً إذا كفَّر بالصوم فلا قضاء عليه، وإن جامع ناسياً فعليه القضاء دون الكفارة. واختار جواز بيع جلد الأضحية، وأن يشتري به الغربال والمنخل، وما أشبه ذلك مما ينتفع به هو وغيره، يعني الجيران والأصحاب. واختار أن المحرم إذا اضطر إلى أكل الصيد فأكله فإنه لا يضره، لأنه مباح له أشبه بصيد البحر مع الضرورة. وهذه المسائل منتقاة من كتاب المغني للإمام العلامة موفق الدين أبي عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى.

وفاة الإمام الأوزاعي

قال ابن أبي العشرين: ما مات الأوزاعي حتى جلس وحده وسمع شتمته بأذنه، يعني أنه اعتزل الناس وصبر على أذاهم. وقال أبو بكر بن أبي حثمة: حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي قال: كنت جالساً عند الثوري فجاء رجل فقال: رأيت الليلة كأن ريحانة من المغرب قلعت. قال: إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي، وكتبوا لك، فجاء موت الأوزاعي في ذلك اليوم. وقال أبو مسهر: بلغنا أن سبب موته أن امرأته أغلقت عليه باب

الحمام فمات فيه ولم تكن عامدة لذلك، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بعتق رقبة. قال: وما خلف ذهباً ولا فضة ولا عقاراً ولا متاعاً إلاّ ستة وثمانين فضلت من عطائه. وكان قد اكتتب في ديوان الساحل. وقال غيره: كان الذي أغلق عليه باب الحمام صاحب الحمام، أغلقه وذهب لحاجة له ثم جاء ففتح باب الحمام فوجده ميتاً قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة، رحمه الله تعالى ورضي عنه. وقال الحافظ عماد الدين بن كثير: لا خلاف أنه مات في بيروت مرابطاً، واحتفلوا في سنة وفاته، وروى يعقوب بن سفيان عن سلمة قال: قال الإمام أحمد: رأيت الأوزاعي توفى سنة خمسين ومائة. وقال العباس بن الوليد البيروتي: توفى يوم الأحد أول النهار لليلتين من صفر سنة سبع وخمسين ومائة. هذا هو الذي عليه الجمهور، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. قال العباس بن الوليد: ولم يبلغ من العمر سبعين سنة، وقال غيره: جاوز السبعين، والأصح سبع وستون سنة لأن مولده في سنة ثمان وثمانين على الصحيح. وقال عقبة بن علقمة: اختضب في داره ودخل الحمام وأدخلت معه امرأته كانوناً فيه نار وفحم وأغلقت عليه باب الحمام، فلما هاج الفحم صغرت نفسه وعالج الباب ليفتحه فامتنع عليه، فألقى نفسه، فوجدناه موسداً ذراعيه إلى القبلة. وقال العباس بن الوليد البيروتي: حدثني سالم بن المنذر قال: سمعت الضجة بوفاة الأوزاعي فخرجت، فأول من رأيت نصراني قد ذرَّ على رأسه الرماد، فالمسلمون من أهل بيروت يعرفون ذلك كله. ودفن خارجاً منها على شاطىء البحر في الصنوبر بأرض قرية يقال لها «حنتوس»، وهو مدفون في قبلة حائط مسجدها. وقال عبد الحق الاشبيلي في كتابه العاقبة: ولما مات الأوزاعي رضي الله عنه اجتمع للصلاة عليه ما لا يحصى عددهم إلاّ الله تعالى. قال: وروي أنه أسلم في ذلك اليوم من أهل الذمة اليهود والنصارى نحو ثلاثين ألفاً، لما رأوا من كثرة الخلق على جنازته، ولما رأوه من العجب في ذلك اليوم. وقال عبد الحميد بن أبي العشرين: سمعت أمير الساحل يقول وقد دفنا الأوزاعي ونحن عند القبة: رحمك الله يا أبا عمرو، فلقد كنت أخاف منك أكثر من الذي ولاني! يعني السلطان والله تعالى أعلم. وروى أبو الفرج بن الجوزي بإسناده عن يزيد بن

مذكور قال: رأيت الأوزاعي في منامي فقلت: يا أبا عمرو دلني على أمر أتقرَّب به إلى الله تعالى، فقال لي: ما رأيت هاك درجة أرفع من درجة العلم. فقلت: ثم من بعدها؟ قال: درجة المحزونين، يعني الذين لا يزالون باكين حزناً على أنفسهم، لما يرون من تقصيرها، ولما يخافون عليها من سوء مصيرها، فأعقبهم ذلك غلو الدرجات وعظيم المسرات.

وقد رثاه غير واحد من الأدباء والفضلاء، منهم الشيخ الفقيه المقري أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن القدسي فقال:

الحمد لله ذي النعمى وأشكره   على متابعة الآلا وأذكره

ومنهم الأديب النسيب الفاضل عبد اللطيف ابن الشيخ شمس الدين محمد بن الياسوفي، فقال:

ضاق الفؤاد بما يغشى من الكرب
منذ مات شيخ التقى والعلم والأدب

ومنهم الشيخ الصالح المقري أبو العز شرف الدين عيسى بن إبراهيم بن عيسى المقدسي، فقال: .

بدأت بحمد الله حال مقالتي   فلله الحمد في كل حالة

وقال أيضاً:

مدحت إماماً فائقاً في عصره   جمع العلوم إمامنا الأوزاعي

ومنهم الأديب الفاضل شهاب الدين أحمد بن عيسى بن مهنا العبسي:

قد مات أبو عمرو وولى وانقضى   فقد الحبيب أمرّ من جمر اللظى

وقال أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن الفراش يرثي أبا عمرو الأوزاعي فقال:

لهفي على رجل أراد تفقهاً   أو كان في علم الحقيقة ساعي

فهذا ما يسره الله تعالى على يد الفقير المذنب الذليل من مناقب الإمام العظيم الجليل، جمعتها في هذا المختصر اللطيف محبة في هذا الإمام العالم

العامل الحنيفي، عسى الله تعالى أن يحشرني معه ومع عباده الصالحين، فإن المرء مع من أحب وإن كان من المقصرين، وأرجو من الله أن ينفعني به ومن بلغ من المسلمين، إنه جابر المنكسرين، وسميته «محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو الأوزاعي». وكان الفراغ من نسخه وتعليقه نهار الخميس المبارك رابع عشر جمادى الأولى من شهور سنة ثمان وأربعين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم. وذلك على يد أفقر عباد الله تعالى وأحوجهم إلى رحمته: زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب، غفر الله له ولوالديه، ولمن قرأ فيه ودعا له بالمغفرة، إنه غفور رحيم.

ملحق

أوقاف الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه) الضائعة (*)

(*) انظر: شفيق طبارة: الإمام الأوزاعي - بيروت ١٩٦٥.

أوقاف مقامه

كانت أوقاف مقام الإمام الأوزاعي كثيرة، رصد نفعها في مختلف العصور على مسجد حنتوس ومقام الإمام، ولكن مما يدعو إلى الأسف أنه بتطاول الزمن، قد سلبت تلك الأوقاف، وما بقي منها لزماننا إلاَّ قطعة من الأرض مساحتها نحو عشرة آلاف متر مربع.

وأقدم ما وقعت عليه من الحجج الشرعية الثابتة حجة يعود تاريخها إلى سنة ١١٥٦ هـ علمت منها أن الأمير يونس ابن الأمير عباس ابن الأمير أحمد الشهابي قد وقف على المقام قطعة أرض كما في النص التالي:

«محدودة قبلة المقام الشريف وشرقاً بستان ملك الواقف المذكور وشمالاً الناعورة وغرباً البحر المالح تتمة الحدود، وقف ذلك على المسجد ومقام الإمام، ويصرف ريع تلك الأرض على لوازم المسجد والمقام من زيت وحصر وتعمير وترميم وبقية لوازمه وما يتبقى من الفضلة للمتولي والناظر لقاء أتعابه وقد تخلى عنها التخلي الشرعي».

وكذلك أوقف الأمير يونس عقاراً آخر يشتمل على ما يلي:

«قبو سفلي معقود بالأحجار بابه من داخل صحن المقام، وعلى سلم حجر يصعد به إلى فسحة سماوية تحتوي على أوضتين إحداهما معقودة بالأحجار، والأخرى مسقوفة بالأخشاب وأمامها رواق صغير مسقوف بالأخشاب ومطبخ وكنيف، لسكن متولي وناظر المقام الشريف، ونصب الشيخ أحمد ابن الشيخ سعد الرفاعي لإقامته للخدمة المعينة عليه، ومن بعده على أولاده، وأحفاده الأرشد بالأرشد ممن يراه الحاكم الشرعي أهلاً لذلك».

وجرى ذلك لدى الحاكم الشرعي ابراهيم المولى حلاق وختم بصحة الوقف وحرر في ١١ ربيع الأول ١١٥٦ هـ وشهد على ذلك السادة: قاسم

المحب، ومحمد شهاب الدين، وعبد القادر القصار، والشيخ علي فتح الله، والشيخ مصطفى سعادة، وابراهيم آغا الوزداد، وأبو عباس نجا، وأبو مصطفى جوجو، وأبو صالح شقير، وقيّد بدائرة أوقاف بيروت وقف الأوزاعي بخط الكاتب عبد الغني البربير».

وهذه الحجة هي بعهدة السيد عبد الوهاب الرفاعي مدير غرفة التجارة والصناعة في بيروت.

ومما علمت من سجل الأسرة الأرسلانية أن أقدم من تولى خدمة مقام الأوزاعي، اسحاق بن حماد النميري، ولم أعثر على مرجع يهديني إلى أسماء من أتوا بعده حتى سنة ١١٥٦ هـ ، ولعل مرد ذلك إلى قلة الكاتبين في تلك الفترة من الزمن وخلوها من المؤرخين، أو إلى إغفال أهمية هذا الأمر، أو لعلّ شيئاً كان قد كتب ثم قضت الحوادث والأحوال فضاع حتى تحول حق الولاية على الوقف إلى طيِّب الذكر الشيخ أحمد ابن الشيخ سعد الرفاعي وحصر بذريته، ومازال شيوخ آل الرفاعي، المعروفون بالصلاح والتقوى، يتوارثون خدمة المقام منذ ذلك التاريخ.

إصلاح مقامه

ولا يفوتني أن أذكر هنا أن الطبيب محمد خالد [رحمه الله] نجل مفتي الجمهورية اللبنانية الأسبق المغفور له سماحة الشيخ توفيق خالد قد شعر بالإهمال الذي أصاب مقام الإمام، فحملته الغيرة على تحقيق أمنية والده المرحوم، فسعى مع نخبة من كرام المواطنين، واتفقوا مع مديرية الأوقاف الإسلامية على إنشاء بناء فوق أرض وقف الإمام الأوزاعي لمؤسسة إنسانية أطلق عليها اسم (مؤسسة الخدمات الاجتماعية) غايتها إيواء الأطفال الأيتام والمعوزين وتعليمهم وتدريبهم تدريباً مهنياً يجعلهم صالحين لكسب رزقهم بأنفسهم. وقد بوشر العمل بهذا المشروع في أواخر سنة ١٩٦١ وتم في نهاية سنة ١٩٦٤.

وأقيم على أرض الوقف الخاص بالإمام صرح تلك المؤسسة في الجهة الشرقية من المقام الظاهر، وإلى جواره في الجهة الشمالية أنشأ المهندس السيد محمد رستم رمضان من ماله الخاص مبرّة لإيواء ماية وخمسين يتيمة وجهّزها بكل ما تحتاج إليه من أثاث، ويشرف على إدارة المؤسسة عمدة قوامها:

سماحة الشيخ محمد علايا مفتي الجمهورية اللبنانية [الأسبق] وسماحة الشيخ شفيق يموت رئيس المحكمة الشرعية العليا ورئيس المؤسسة الفخري، والطبيب محمد خالد رئيس مجلس العمدة وهم السادة: عبدالله المشنوق، صلاح دندن، أنيس الشعار، محمد كامل طباره، بهيج عثمان، محمود مصطفى الحبال (مدير المؤسسة) جزاهم الله جميعاً خير الجزاء. [ورحم من توفاه الله].

وفي جوار المسجد القديم إلى الجهة الشرقية من الضريح، شيدت تلك المؤسسة مسجداً على طراز حديث باسم (مسجد الإمام أبي عمرو

الأوزاعي)، والهمة مبذولة لترميم المسجد القديم، بالاشتراك مع مديرية الأوقاف الإسلامية في بيروت، ومديرية الآثار العامة ليبقى مزاراً أثرياً ملاصقاً للضريح، والأمل معقود على الرجال الأفاضل أن يبذلوا عنايتهم بهذا البناء التاريخي فيعيدوا إليه رونقه لأنه يعد من أقدم الآثار العربية الإسلامية الباقية في لبنان.

وجاء في جريدة (ثمرات الفنون) لصاحبها المرحوم الشيخ عبد القادر القباني رئيس بلدية بيروت في زمانه (سنة ١٣٢٤ هـ) قد ذكرت في عددها ١٦٠٣ ما يلي:

تلقينا من بعض أفاضل الثغر رسالة أفاضوا فيها عن الأراضي الموقوفة على مقام الأوزاعي رضي الله عنه خارج مدينة بيروت وداخل متصرفية جبل لبنان الجليلة الثابتة هذا الوقف بموجب إعلان شرع مصدق عليه من باب المشيخة الإسلامية العليا وصادر بثبوته إعلام بدائي واستئنافي من محاكم المتصرفية المذكورة وذلك ضمن الحدود المبينة في الأعلام الشرعي المذكور وهي:

من القبلة: أراضي نهر الغدير.
من الشمال: أراضي وطى بطينا.
من الشرق: طريق صيدا.
من الغرب: البحر المالح.

وإن في ضمن هذه الأراضي مما يلي سهل (البئر حسن) مقام أحد الأعزاء سهل أبي مهاجر المعروف مقامه بشيخ الظهرة[1].

ويقول الشيخ طه الولي: إنه طالع وهو يقوم بدراسة تاريخ مدينة بيروت على أن نعوم باشا متصرف جبل لبنان زار مقام الأوزاعي للتبرك به والإعراب عن اهتمام الدولة العثمانية بالإمام الثاوي في ترابه، فاستقبله القيم على ذلك المقام وكان يدعى (التربدار) مصطفى الرفاعي فأمر المتصرف

(١) مكان المدينة الرياضية اليوم.

الموظفين أن يغرسوا أشجاراً في الأماكن القريبة، وقصباً عند حوافي الطرق، ليستظل بها زوار الإمام من لفحات الشمس أثناء فصل الصيف.

بعض أوقاف مقام سيدي الإمام الأوزاعي وبعض
الأوقاف الإسلامية الأخرى في بيروت المحروسة

شخصية السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي

(٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م)

من خلال نصوص المصادر التاريخية العربية(*)

(*) بحث مقدم في مؤتمر صلاح الدين الأيوبي» الذيعقد في بيروت بين ٢١ ـ ٢٥ آذار (مارس) ١٩٩٤، بتنظيم من المعهد العالي للدراسات الإسلامية التابع لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت

شخصية السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي
(٥٣٢ - ٥٨٩هـ/١١٣٧ - ١١٩٣م)
- من خلال نصوص المصادر التاريخية العربية -

١ - صلاح الدين الأيوبي وبداية ظهوره السياسي والعسكري

ولد صلاح الدين الأيوبي في قلعة تكريت بين بغداد والموصل، وذلك سنة ٥٣٢هـ. وكان والده نجم الدين أيوب بن شاذي والياً على القلعة. وقد انتقل الوالد وابنه صلاح الدين في ما بعد إلى الموصل. وكان أيوب بن شاذي وأخوه أسد الدين شيركوه من القيادات المحترمة عند اتابك زنكي. بعد ذلك، انتقل والد صلاح الدين إلى الشام، وأعطي بعلبك، وأقام بها، ونقل معه ولده صلاح الدين الذي تربى تربية سياسية وعسكرية وأخلاقية على والده. ومنذ تلك الفترة بدأ نجم صلاح الدين يظهر في إطار القيادة والزعامة، فقدّمه الملك العادل نور الدين محمود زنكي. كما توسّم فيه عمه أسد الدين شيركوه القيادة، لا سيما بعد أن آلت إليه مصر[(١)].

كانت الصفات المميزة لصلاح الدين الأيوبي، هي العوامل البارزة والمؤثرة في ظهوره على المسرح السياسي والعسكري. وكان نور الدين محمود زنكي قد عهد إلى قائده بالخروج على رأس حملة سنة ١١٦٤م لمساندة الوزير الفاطمي شاور ضد ضرغام، وحماية مصر من أطماع الصليبيين. وكان أسد الدين شيركوه مقدماً لجيوش نور الدين، حيث توجه إلى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين والوزير شاور، في حين

---

(١) ابن شداد، بهاء الدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، ص ٦، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٤١ - ٤٤، وللمزيد من التفصيلات عن حياة صلاح الدين ينظر: ابن خلكان: المختار من ترجمة السلطان صلاح الدين، ص ٣٩٩ - ٣٤٠ من: Historiens des Croisades-Historiens Orientaux, Tome 3.

استنجد ضرغام بالصليبيين، وتعهد لعموري ـ مقابل مساعدته ـ بأن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعةً للملك الصليبي. غير أن شيركوه حقق انتصارات على جيش ضرغام، ووصل إلى أسوار القاهرة سنة ١١٦٤م. وبعد أن قتل ضرغام تولى شاور الوزارة «وكان لوصولهم إلى مصر موقع عظيم، وخافه أهل مصر، ونصر شاور على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرّر قواعده...»[٢].

وكان صلاح الدين الأيوبي موضع ثقة عمه، وذلك إن أسد الدين شيركوه «كان لا يفصل أمراً ولا يقرّر حالاً إلا بمشورته ورأيه»، مما يدل على قوة شخصيته وإرادته وعمق إدراكه للأمور السياسية والعسكرية. وكان صلاح الدين قد خرج للمرة الثانية إلى مصر مغادراً دمشق مع عمه شيركوه في كانون الثاني (يناير ١١٦٧م)، للاقتصاص من الوزير شاور الذي تعاون مع الصليبيين ولدفع الخطر الصليبي. «وكان شارو قد شاوَرَ الفرنج وهداهم في حرب الإسلام النهج...»[٣].

وقال الشاعر «عرقلة الدمشقي» مادحاً صلاح الدين بهذه المناسبة:

ربّ كما ملّكتها يوسف الـ ... صدّيق من أولاد يعقوب
يملكها في عصرنا يوسف الـ ... صادق من أولاد أيوب

شارك صلاح الدين في معارك ضد الصليبيين في مصر، انتصر فيها المسلمون انتصارات غير حاسمة على الصليبيين، وكان الوزير شاور قد قام بدور مريب «يلعب بالمسلمين تارة، وبالإفرنج تارة أخرى». لذا ألقي القبض على شاور، وصدرت الفتوى «بجز رقبته» لأنه كان سبب هلاك الإسلام والمسلمين. وقد لاقى هذا القرار الاستحسان من الخليفة الفاطمي العاضد، وأركان حكمه والشعب المصري. لذا خلع الخليفة الفاطمي خلعة الوزارة على أسد الدين شيركوه ولقّبه بالمنصور.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٦؛ وانظر أيضاً البنداري: سنا البرق الشامي، ق ١، ص ٦٠، أبو الفداء: منتخبات من المختصر في أخبار البشر، ص ٣٨ ـ ٤٠ من :
Historiens des Croisades-Historiens Orientaux Tome 1.

(٣) البنداري، سنا البرق الشامي، ق ١، ص ٦١.

أما عن صلاح الدين الأيوبي، فقد أشار إليه ابن شداد بالقول «والسلطان ـ رحمه الله ـ مباشر الأمور، مقرر لها، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتّيه وسياسته»[٤].

وفي ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/آذار (مارس) ١١٦٩م، شاءت الأقدار أن يتوفى أسد الدين شيركوه، ففوض الخليفة الفاطمي أمر مصر إلى صلاح الدين الأيوبي، وكان في الحادية والثلاثين من عمره. ومما قاله ابن شداد عن هذا الأمر: «وفوّض الأمر بعده إلى السلطان، واستقرت القواعد، واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذل المال وملك الرجال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة اللّه عليه .... ، وتقمص بلباس الجدّ والاجتهاد، وما عاد عنه، ولا ازداد إلا جداً إلى أن توفاه اللّه إلى رحمته»[٥]. كما «تيقظ للتدبير وسها عن السهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المبين، وشمّر عن ساق الجد والاجتهاد...»[٦]. وما أن تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة حتى أثبت قوته في الإدارة والحكم، بل أثبت أنه قادر على تجاوز الخليفة الفاطمي في الأمور الأساسية في الدولة، بما فيه تقوية المذهب السني على حساب المذهب الشيعي، وهو مذهب الخليفة والطبقة الحاكمة في مصر «ولما استقرت قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة ونظم بحسن تدبيره من الدولة بدَدَها، وجرى في مناهج العدل على جدَدها...»[٧]. ونتيجةً للعدل واستتباب الأمن والنظام باتت مدن مصر ليلها كنهارها وتصرف الناس وعملهم في الليل والنهار سواء على حد قول ابن جبير[٨]، خاصة بعد أن قلّص من الأعداء في الداخل، وقضى على الإفرنج في دمياط، بعد أن شحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخيرة[٩]. وكان

(٤) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٤٠، أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٤.

(٥) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٤٠.

(٦) أبو شامة، المصدر نفسه، ص ٤٤٠.

(٧) أبو شامة، المصدر نفسه، ص ٤٤٠.

(٨) ابن جبير: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ٤٣.

(٩) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٤٠.

العاضد قد ساعده بالمال وساعده نور الدين لشن هجمات على الإفرنج في الساحل(١٠).

هذا، وقد أشارت النصوص التاريخية إلى إنجازات صلاح الدين الأيوبي العسكرية والعلمية والدينية. ومما قيل في هذا المجال: «لقد سمعت منه يقول: لما يسّر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي. ومن حين استتب له الأمر، ما زال يشن الغارات على الإفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادها... هذا كله وهو وزير متابع للقوم، ولكنه مقوٍ لمذهب السُّنة، غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوُّف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويفدون عليه من كل جانب، وهو لا يخيِّب قاصداً، ولا يعدم وافداً إلى سنة خمس وستين وستمائة»(١١).

بالإضافة إلى ذلك، فقد بدأ صلاح الدين بتوطيد الأمن، والقضاء على كبار الملاك والإقطاعيين في مصر، وأحل محلهم جماعةً من رجاله من أهل الشام. ومن خلال الإنجازات الداخلية التي قام بها الملك الناصر، تبين أنه لم يكن ممثلاً لنور الدين زنكي فحسب، بل بات الآمر والناهي في مصر، في ظل خليفة لا إرادة ولا قوة له. وباتت الخلافة الفاطمية فاقدةً أي أمل في إعادة قوتها، بعدما أصبح صلاح الدين الحاكم المطلق، خاصة وأن من ملامح تبعيتها عودة الدعاء والخطبة للخليفة العباسي في بغداد «المستضيء بأمر الله» لا سيما في أواخر عهد الخليفة الفاطمي العاضد.

وما أن توفي العاضد في ١٠ محرم سنة ٥٦٧هـ، حتى انتهت الدولة الفاطمية في مصر، واستقر الحكم للملك الناصر صلاح الدين الأيوبي. وبدأ بإرساء وتدعيم المذهب السني في مصر بإلحاحٍ وتأييد من نور الدين.

وكان أول عمل أساسي رأى صلاح الدين القيام به، هو العمل لتوحيد مصر

(١٠) النابلسي: كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، ص ١١ ـ ١٢.
(١١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٤١. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٠٦.

وبلاد الشام، وتأكد له أنه لا يمكن تحقيق القوة والنصر للأمة الإسلامية، إلا بعد تحقيق تلك الوحدة، خاصة أن الأخطار الأوروبية ـ الصليبية، كانت لا تزال تهدد مصر من بلاد الشام، وقد بدأ فعلاً بهذه الخطوة بالتعاون مع الملك نور الدين، حيث تم الاستيلاء على غزة وأيلة (ايلات)(١٢).

وبالرغم من أن الملك نور الدين تضايق في بعض الأحيان من تزايد نفوذ صلاح الدين في مصر، غير أنه من الثابت أنه كان يحترمه ويقدر شخصيته، وقد كتب كتاباً بخط يده إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، يدل فيه على احترامه ومحبته له. ومما جاء فيه:

«تصل أنت وولدك عندي حتى أسيِّركم إلى مصر والسلام، بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين ـ وفقه الله ـ فأنا منه شاكر كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه. ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير»(١٣).

٢ ـ تولي صلاح الدين الأيوبي حكم مصر والشام

بعد أن أنهى صلاح الدين الدولة الفاطمية، بدأ يعزز الوضع الديني والعلمي والسياسي في مصر، وقد كان شافعي المذهب حريصاً على مذهب السُّنة. فعمد إلى تحويل دار المعونة ودار العدل في الفسطاط من مدارس شيعية إلى مدارس شافعية. كما أقام مدرسة للمالكية في دار الغزل، وهي التي عرفت في ما بعد باسم المدرسة القمحية. بالإضافة إلى أن صلاح الدين الأيوبي أحل القضاة الشافعية محل قضاة الشيعة في جميع الديار المصرية(١٤). وقطع من الأذان عبارة «حي على خير العمل»،

(١٢) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٤٥.
(١٣) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.
وحول علاقة صلاح الدين بنور الدين أنظر: أبو الفداء، منتخبات من المختصر في أخبار البشر، ص ٤٢ ـ ٤٤.
(١٤) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١، ص ١٩٨.

كما أشار أبو شامة[١٥]. وأنشأ مدارس عديدة أخرى منها المدرسة التي عمّرها بالقرافة الصغرى المجاورة لضريح الإمام الشافعي[١٦].

وكان السلطان صلاح الدين بعد أن استقر في مصر، اشتغل «بمصالح الدين والدولة والجلوس في دار العدل يومي الاثنين والخميس لتشييد منار الحق وتفريج الكرب وإسداء المعروف وكشف المظالم»[١٧]. وبدأ بمحو أسماء الخلفاء الفاطميين عن المساجد والزوايا، وأزال الآثار وملامح الحكم الفاطمي. ومما ساعد على تحول مصر من المذهب الشيعي إلى المذهب السني بهدوء، أن المذهب الشيعي كان في مصر مذهب الخلفاء والحكام وأتباعهم، ولم يكن مذهب عامة المصريين، لذلك صرف جميع قضاة الشيعة وعين مكانهم قضاةً من أهل السنة[١٨].

وأشار أبو المحاسن إلى أن صلاح الدين عندما علم بوفاة الخليفة العاضد الفاطمي ندم ندماً شديداً، لأنه تعجل في قطع خطبته وقال: «ليتني صبرتُ حتى يموت»[١٩]، ومنذ ذلك الوقت. وعقب سقوط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ١١٧١م، صارت الخطبة على منابر المساجد تخطب باسمه بعد الخليفة العباسي المستضيء، والملك العادل نور الدين محمود. وبات صلاح الدين يوازي بنفوذه الخليفة في بغداد والسلطان في دمشق، وتحول الولاء من ولاء الخليفة إلى ولاء لثلاثة خلفاء أو ثلاثة ملوك. ومن هنا بدأت ملامح الخلافات تظهر بين صلاح الدين ونور الدين[٢٠]. غير أن صلاح الدين رفض إثارة الخلافات مع نور الدين أو مواجهته.

(١٥) أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٨ و ٤٩٨.
(١٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٤٤٠، المقريزي، السلوك، ج ١١، ص ٦٣.
(١٧) ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص ٥٣.
(١٨) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م ٤، ج ١، ص ١٢٥. ويلاحظ بأن صلاح الدين اهتم اهتماماً بالغاً بإنشاء المدارس الشافعية في مصر وبلاد الشام لأهداف دينية وعلمية. أنظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٦.
(١٩) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٥٦.
(٢٠) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٤٩- ٥٢.

وقال صلاح الدين «لم ينزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته»[٢١] وذلك في ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م[٢٢].

وفي الوقت نفسه، كان صلاح الدين الأيوبي قد وطد أركان حكمه في مصر ضد القوى الداخلية، فصدَّ القوى الخارجية الصليبية، مما دعاه للتوجه إلى بلاد الشام لتوحيدها مع مصر. وقد ساعدته الظروف السياسية والعسكرية، وفي مقدمتها أن الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان المتوفى نور الدين، كان لما يزل صغيراً، ولا يستطيع النهوض بأعباء الحكم، ولم يكن قادراً على «دفع عدو اللّه عن البلاد»[٢٣]، بالإضافة إلى أن قادة وأمراء الشام أرادوا تقسيم هذه البلاد في ما بينهم، مما يهدد وحدة وقوة المسلمين، خاصة أن الأخطار الصليبية، كانت لا تزال ماثلة في البلاد، ومن بين هؤلاء القادة والأمراء؛ سيف الدين غازي أتابك الموصل ابن عم الملك الصالح إسماعيل، وشمس الدين علي ابن الداية، وشمس الدين محمد ابن عبد الملك المعروف بابن المقدم. وقد استطاع صلاح الدين القضاء على نفوذ هؤلاء، بعد أن وصل إلى الشام «أصل بلاد الإسلام» وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٧٠هـ[٢٤] تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٤م.

وكان بعض القادة اتهم صلاح الدين بأنه طامع في الحكم بعد نور الدين، فما كان منه إلا أن أرسل رسالة إلى شمس الدين ابن المقدّم ينفي ما أشار إليه، مؤكداً على الوفاء، وعدم تفريق الكلمة والتمسك بالمبادىء والمثل العليا السياسية. ومما جاء في رسالة صلاح الدين:

«وصل كتاب الأمير أطال اللّه بقاءه وأحطنا بالمشافهة والمكتوب وما نريده معرفة. إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما يجمع شملهم ويؤلف كلمتهم، وللبيت

(٢١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٤٧.
(٢٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ٥، ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٢٣) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٥٠. أنظر أيضاً حول جهود صلاح الدين لتوحيد مصر وبلاد الشام: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٠٢، ١٠٩ ـ ١١٨، ١٦٣ ـ ١٦٥، ١٧٢ وصفحات متفرقة.
(٢٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٥٠.

الأتابكي إلا ما يحفظ أصله وفرعه، ويدفع ضُرّه ويجلب نفعه. فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر العداوة. وبالجملة أنا في واد والظانون ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مُراد لن يبعدنا عنه مراد. ولا يقال لمن طلب الصلاح «إنك قادح»، ولا لمن ألقى السلاح «إنك خارج». وما مرادنا إلا مصلحة تؤثر، لا فتنة تثار، وخدمة تنير لا مضرة تسدى وتثار. فلو زرنا على غير هذا السبيل لما سلكنا مراجعة الخطاب ومطالعة الكتاب. فلا يحمل أمرنا إلا على أحسنه، ولا يظن بنا إلا الخير الذي طبعْنا أخص بوجوده من معدنه»[٢٥].

هذا، وقد استقبل صلاح الدين الأيوبي من الدمشقيين استقبالاً حافلاً. وكان أول وصوله إلى دار أبيه المعروفة باسم «دار العفيفي» ثم «أظهر الفرح والسرور بالدمشقيين، وأظهر الفرح به، وصعد القلعة، واستقر قدمه في ملكها». ومن ثم سيطر على مختلف مدن ومناطق الشام مثل حمص وحلب وحماه والمعرة وسواها، وقطع الخطبة للملك الصالح إسماعيل وأزال اسمه على السكة، فازداد وضعه رسوخاً بعد أن أقرّ الخليفة العباسي في بغداد الوضع الجديد، فأرسل إليه الخلعة، التي وصلته في أيار (مايو) سنة ١١٧٥م، وهو لا يزال في حماة.

وبالرغم من أن صلاح الدين بات الرجل الأقوى في الشام، غير أن الزنكيين حاولوا استعادة ملكهم لا سيما في دمشق، لذا تحالفوا مع الإفرنج. وقام بلدوين الرابع – ملك بيت المقدس – بغزو دمشق سنة ١١٧٥م، كما حاول الزنكيون غزوها سنة ١١٧٦م. مما حدا بصلاح الدين الأيوبي أن يطلب العساكر من مصر لدعم موقفه العسكري في الشام[٢٦]. وبالفعل فقد استطاع الانتصار على أعدائه عند «تل السلطان» على الطريق بين حلب وحماه، وذلك في سنة ٥٧٢هـ/أواخر نيسان (ابريل) ١١٧٦م.

وبعد أن قام صلاح الدين الأيوبي بإنجازاته العسكرية في بلاد الشام، عاد إلى

(٢٥) البنداري: سنا البرق الشامي، ق ١، ص ١٦٨ – ١٦٩.

(٢٦) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٥١ – ٥٢.

الديار المصرية لمتابعة أوضاعها، وذلك في ربيع الأول من سنة ٥٧٢هـ/ أواخر سنة ١١٧٦م، واستخلف أخاه شمس الدولة في دمشق.

وفي مصر بدأ صلاح الدين يعد العدة من أجل «مصر قوية» لمواجهة أي طارىء من قبل الافرنج، أو من أي عدو آخر. لذا بدأ فوراً في بناء قلعة حصينة عند مسجد الدولة على جبل المقطم[٢٧]. وهو مكان استراتيجي هام يطل على جميع مناطق القاهرة، ويشرف عليها إشرافاً تاماً. وقد أحاط القلعة بخندق عميق. كما أمر ببناء سور ضخم حول القاهرة، وقد عهد إلى بهاء الدين قراقوش بناء القلعة والسور معاً[٢٨]. كما قام قراقوش ببناء حائط كبير خارج القاهرة على طريق الاسكندرية الصحراوي، بهدف حماية القاهرة من أي هجوم صليبي.

هذا وقد ساهمت شخصية صلاح الدين العسكرية، بإضْفاء الطابع العسكري على الدولة وعلى مظاهرها. فقد حرص في شعبان ٥٧٢هـ/شباط (فبراير) ١١٧٧م على تفقد تحصينات دمياط والاسكندرية، وأعطى تعليماته بضرورة الاهتمام بإصلاح وترميم السفن، وإعداد الرجال والمقاتلين. ثم اهتم بربط القاهرة بالمدن المصرية الأخرى عن طريق الحمام الزاجل والأبراج. بالإضافة إلى ربط هذه الأبراج بالأبراج القائمة في دمشق والمدن الشامية الأخرى. ونظراً لاهتمامه بالجانب العسكري فقد صرف على جيشه ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعين ألفاً[٢٩].

وكان هاجس صلاح الدين المستمر يتمثل بضرورة تخليص بيت المقدس من الصليبيين. ولما حاول سنة ١١٧٧م تحريرها فشل وحلت به الهزيمة عند «تل الصافية». وعند ذاك «حلف لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج»[٣٠]. غير أنه انتصر

(٢٧) هي القلعة الشهيرة التي اتخذها في ما بعد والي مصر محمد علي مقراً له، وأقام بجانبها مسجد محمد علي (مسجد القلعة).

(٢٨) أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨٨، ٦٨٨. البنداري، المصدر السابق، ق ١، ص ٢٣٩ – ٢٤١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٤ – ٤٦.

(٢٩) المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٧٥.

(٣٠) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١، ص ٥٧٣.

في ما بعد على بلدوين الرابع، وهمفري صاحب حصن بانياس انتهت بوفاة الأخير في حصن هونين. كما انتصر على الإفرنج في تل معروف بأرض الرملة عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م[٣١].

ومن ملامح شخصية صلاح الدين الأيوبي التصميم والإرادة الثابتة وعدم التراجع عن أهدافه. لذا استمر يقاتل الصليبيين في حماه وحمص وصيدا وبيروت. وقد أشار ابن واصل بأنه كان «يركب كل يوم بحجة الصيد ويجر العساكر وقبائل العرب إلى صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو»[٣٢]. كما انتصر صلاح الدين على الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس في موقعة «تل القاضي» في سهل مرجعيون، في ١٠ حزيران (يونيه) سنة ١١٧٩م.

وأشار محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي (ابن أخ صلاح الدين) إلى أنه في هذه الموقعة «أحضر جماعة من مقدميهم الأكابر، وقيدوا بالقيود الثقال، ثم عرض الأسرى فكانوا مائتين ونيفاً وسبعين من الفرسان المقدمين... ثم نقل الأسارى إلى دمشق فاعتقلوا»[٣٣]. كما انتصر صلاح الدين على الصليبيين في منطقة «حصن الأحزان» حتى كانت ألسنة اللهب تشاهد من طبرية، بعد أن اقتحمه صلاح الدين وأسر سبعمائة منه، وغنم مائة ألف قطعة سلاح وحديد[٣٤].

وفي هذه الفترة تزايدت الأعباء العسكرية على صلاح الدين، فكان عليه مواجهة بعض القوى الداخلية والقوى الصليبية وقوى الأرمن الذين كانوا يحاولون إرباكه، مما اضطره إلى إعلان الهدنة مع الصليبيين في صيف ١١٨٠م، وعاد إلى مصر «والسلطان مقيم بالقاهرة، ومواظب على ترتيب أحوال الديار المصرية، ناشر للعدل في الرعية، باذل لمعروفه وما يسديه من مكارم أخلاقه لقاصديه»[٣٥].

---

(٣١) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٧٠٣.
(٣٢) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٢، ص ٧٤.
(٣٣) ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق. ص ١٧.
(٣٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٧.
(٣٥) ابن شاهنشاه الأيوبي، المصدر السابق، ص ٥٩.

وبعد أن سمع خبر وفاة الملك الصالح إسماعيل عاد إلى الشام لترتيب أوضاعها «ثم أنشأ التأهب لغزاة بيروت، فإنه عبر على الإفرنج في عوده من مصر مكابرةً من غير صلح، فقصد بيروت ونزلها، ولم ينل منها غرضاً، واجتمع الإفرنج فرحّلوه عنها، ودخل إلى دمشق...»[٣٦]. ثم غزا مناطق شامية عديدة، وبدأ بتحصين أوضاعه السياسية والعسكرية والاقتصادية استعداداً لمعركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م.

٣ ـ مواصلة صلاح الدين الأيوبي الجهاد ضد الصليبيين والانتصار في معركة حطين

رفض صلاح الدين التهور في إحباط سياسة الملك الصليبي رينو دي شاتيون (ريجنالد) الذي أطلق عليه العرب اسم «أرناط»، حيث أعمال السلب والنهب، وقطع سبل الحج للمسلمين، وقطع سبل التجارة لهم بين مصر والشام والحجاز. كما تجرأ في سنة ١١٨١م محاولاً السيطرة على صحراء العرب حتى تيماء مقدمةً للاستيلاء على المدينة المنورة. وقد وصفه أبو شامة أنه «أغدر الفرنجية وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة، وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة وأنكثها وأحنثها»[٣٧].

ثم إن الخلافات بين الصليبيين لا سيما بين بلدوين الرابع وأرناط، قد تفاقمت مما شجعت صلاح الدين على الهجوم على المناطق والمدن الشامية الخاضعة للصليبيين ومنها طبرية وبيروت وبيسان والكرك والناصرة وسواها. ولما استمرت محاولات «أرناط» السيطرة على طريق الحج، وتدمير مكة المكرمة والمدينة المنورة بين سنتي ١١٨٢ و ١١٨٣م، كانت محاولات خطيرة، جمعت المسلمين في صف واحد، بما فيهم أعداء صلاح الدين الذين اعتبروا أن الصليبيين تجاوزوا حدودهم في إقدام أرناط على مثل هذا العمل المرفوض من جميع المسلمين[٣٨]، خاصة وأنه كثيراً ما نقض

---

(٣٦) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٥٦.
(٣٧) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٧٥.
(٣٨) ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص ٩٣، ٩٥ ـ ٩٦، ٩٧ ـ ١٥٢، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٢٩.

العهود، وهاجم المناطق الإسلامية، وأسر رجالها وأنزل بهم العذاب. وأرسل رسالة إلى صلاح الدين مستفزاً إياه قائلاً: «قولوا لمحمد يخلصكم»[٣٩].

ونتيجة لذلك، فقد أقسم صلاح الدين على اقتلاع الصليبيين من بلاد الشام، وأقسم على أن ينتقم من ارناط، بل إنه «نذر دمه وأعطى للّه عهداً إن ظفر به أن يستبيح مهجته»[٤٠].

وبالفعل، فقد غادر صلاح الدين دمشق حوالى منتصف آذار (مارس) سنة ١١٨٧م على رأس جيش كبير، وسار إلى الكرك في اثني عشر ألف فارس. ويروي صاحب سيرة صلاح الدين «وقعة حطين المباركة» بقوله إنها كانت يوم السبت رابع وعشرين من ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وذلك أن السلطان رأى أن نعمة اللّه عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين اللّه إياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته، ولزومهم قانون خدمته، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في إقامة قوانين الجهاد، فسيّر إلى سائر العساكر واستحضرها... واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة سابع وعشرين ربيع الآخر من السنة المذكورة. وكان أبداً يقصد بوقعاته الجُمع لا سيما أوقات صلاة الجمعة، تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة»[٤١].

وفي أيار (مايو) ١١٨٧م، جرت معركة بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية انتهت بسقوط معظم الصليبيين بين قتيل وجريح وأسير. كما زحف صلاح الدين على طبرية في ٢١ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/أوائل تموز ١١٨٧م وسيطر عليها باستثناء القلعة[٤٢].

---

(٣٩) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٩٤

(٤٠) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٨٥، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٧٥. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٧٨.

(٤١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٧٥.

(٤٢) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٧٦. وحول السيطرة على طبرية والمناطق الساحلية الشامية، أنظر أيضاً: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٣٨٣.

وفي غربي طبرية عند قرية حطين، بدأت المعركة الفاصلة بين المسلمين والصليبيين في يوم السبت ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/٤ تموز ١١٨٧م، ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من الجانبين «ولم يزل الحرب يلتحم، والفارس مع قرنه يصطدم، حتى لم يبق إلا الظفر، ووقوع الوبال على من كفر، فحال بينهما الليل وظلامه... حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه... وكان اللّه قد قدّر نصر المؤمنين... وكان القومص [الأمير][٤٣] ذكي القوم وألمعيهم، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه... فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور... واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب، عليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام، فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل، فأسر مقدموهم، وقتل الباقون وأسروا. وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفري، والبرنس ارناط، وأخو الملك، والبرنس ـ وهو صاحب الشوبك ـ وابن الهنفري، وابن صاحبة طبرية، ومقدم الداوية، وصاحب جبيل، ومقدم الاسبتار»[٤٤].

وتبرز شخصية صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره في معركة حطين في التعامل مع أعدائه، فبعد سقوط ملوك وأمراء وقادة الصليبيين، وبعد قتل زعماء الاسبتارية والداوية عن بكرة أبيهم، رأى أنه لا بد من تنفيذ ما وعد به سابقاً، وقتل من حاول مس كرامة المسلمين وكرامة نبيهم. وأشار ابن شداد في هذا المجال «وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله»[٤٥]، وكان صلاح الدين قد أعطاه فرصةً أخيرةً قبل قتله، إذ طلب منه اعتناق الإسلام فرفض، فأمر بقتله «فأُخذ ورمي على باب الخيمة»[٤٦].

---

(٤٣) هو ريموند كونت طرابلس الذي فرّ باتجاه صور، ثم رحل إلى طرابلس الشام حيث توفي بمرض.

(٤٤) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٤٥) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٧٨.

(٤٦) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٧٩. أنظر أيضاً: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

وأمام هذا الموقف تخوف الملك جفري من القتل، غير أن صلاح الدين الأيوبي بما تميز به من صفات ومميزات، أحضره وطيّب قلبه وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى ما جرى»(٤٧).

وهكذا استطاع صلاح الدين أن يميز في معاملته حتى بين أعدائه، وتمثل ذلك جلياً في معاملته لكل من ارناط الذي سبق أن سخر من المسلمين ومن دينهم، ومن الملك جفري الذي عامله معاملة الشرفاء، ولو كان عدواً له. كما أن صلاح الدين توجه وعساكره إلى طبرية، وأرسل رسالة إلى زوجة ريموند ملكة طبرية، فأجابت إلى تسليم المدينة، فأمنها السلطان هي ومن معها، فسلمت الحصن بما فيه، وخرجت بمالها إلى طرابلس بلد زوجها(٤٨).

٤ ـ تحرير صلاح الدين الأيوبي القدس الشريف والمباحثات السياسية مع الصليبيين

وتبرز شخصية صلاح الدين الأيوبي العسكرية، عندما قرر استرداد القدس الشريف من الصليبيين. من أجل ذلك بدأ بالسيطرة على طبرية وعكا مستهل جمادى الأولى ٥٨٣هـ/١٠ تموز ١١٨٧م. ثم تمت السيطرة على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة وتبنين وبيروت وجبيل وعسقلان، مما اضطر الصليبيين للاجتماع في صور. وكانت فتوحاته مقدمة استراتيجية لفتح القدس الشريف واستردادها، وذلك في يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧م.

وكان وقع فتح القدس الشريف على يد صلاح الدين الأيوبي وقعاً عظيماً على المسلمين والعرب. لذا قصده العلماء من مصر والشام، وارتفعت أصوات الناس بالدعاء والتهليل والتكبير. وبات في نظر المسلمين أنه المجاهد الأكبر، فأطلق سراح ثلاثة آلاف من المسلمين الأسرى كانوا عند الصليبيين، وسمح لكل أسير صليبي

(٤٧) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٧٩.

(٤٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

بالتحرر مقابل فدية، عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كل صغير ذكراً أو أنثى ديناراً واحداً، واستثنى من الفدية الفقراء والمعوزين وكبار السن من الصليبيين. وقد جمع صلاح الدين مائتين وعشرين ألف دينار، وزعها على تمويل حملات الجهاد وعلى وجوه العلم، وعلى الوجوه الإنسانية.

هذا وقد أمر صلاح الدين إبقاء المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة العرب، وعدم هدم كنيسة القيامة، ومعاملة المسيحيين معاملة حسنة، واحترام الأماكن المسيحية المقدسة، وأمر معاملة نساء الصليبيين معاملة كريمة، وسمح لهن بالخروج مع أمتعتهن. أما الأيتام والأرامل وكبار السن والفقراء من الصليبيين، فقد سمح لهم بالخروج دون فداء، وخصص لهم مساعدات إنسانية. وبدا واضحاً الفارق العظيم بين معاملة الصليبيين للمسلمين، وبين سلوك صلاح الدين وتسامحه عندما دخل القدس الشريف سنة ١١٨٧م، وسلوك ملوك أوروبا وتحديهم ومذابحهم وأفعالهم وارتكاباتهم بأهل القدس الشريف عندما سقطت بأيديهم سنة ١٠٩٩م. والحقيقة فإن صلاح الدين والسلاطين المسلمين لم يتوانوا في كل مرحلة من مراحل الحروب الصليبية عن معاملة الأسرى الصليبيين معاملة حسنة وكريمة(٤٩).

والأمر اللافت للنظر أن صلاح الدين الأيوبي الذي سمح للصليبيين بالخروج إلى صور وطرابلس، أمر بمرافقتهم والسهر عليهم خوفاً من تعرضهم لأي مكروه على الطريق الساحلي. غير أن الاعتداءات والمعاملة السيئة لم تأتِ من المسلمين، وإنما أتت من الصليبيين أنفسهم الذين كانوا في مدينتي صور وطرابلس، والذين نهبوا القوافل الصليبية ورفضوا استضافتها، مما اضطرهم للجوء إلى أنطاكية. كما تتابعت أساطيل الصليبيين بالمدد لثغور الشام رغم تطهير بيت المقدس(٥٠). والملاحظ أنه بالرغم من انشغال صلاح الدين الأيوبي بفتوحاته العسكرية في حصن الأكراد وبانياس وجبلة واللاذقية وأنطاكية ومناطق أخرى، غير أن شخصيته المميزة في تشجيع العلم والعلماء

(٤٩) انظر على سبيل المثال: مذكرات جوانفيل (Jean sire de Joinville)، القديس لويس وحملاته على مصر والشام، ص ١٧٣، ١٨٠.

(٥٠) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٥٥.

تشجيع العلم والعلماء ومعرفة أمور الشرع والفقه، استمرت بارزة حتى في فترة حملاته العسكرية، بدليل أنه في فترة حروبه في أنطاكية أعد له ابن شداد كتاباً في الجهاد. وقد أكد المؤلف القاضي ابن شداد هذه المعلومات بقوله: «وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها، يجمع أحكامه وآدابه، فقدمته بين يديه فأعجبه، وكان يلازم مطالعته...»[٥١]، لذلك كان حريصاً على إقامة المدارس الدينية والعلمية، وتحويل السجون إلى مساجد، وتحويل بعض الخانات إلى جوامع[٥٢].

وكان صلاح الدين الأيوبي يتميز بالحمية والغيرة الإسلامية، فحين جرى القتال بين الصليبيين وبين المسلمين في عكا، وكان الوضع العسكري عام ١١٩١م، قد أصبح صعباً،فبدأ صلاح الدين يطوف بين الأمراء والجند يحثهم على الدفاع عن عكا وينادي بنفسه: «يا للإسلام وعيناه تذرفان بالدمع، وكلما نظر إلى عكا، وما حل بها من البلاء، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم، اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة...»[٥٣]. وكانت الشقيف وصفد من جملة الفتوح الناصرية الصلاحية، وهما من أمنع الحصون وأحصنها. وكان السلطان صلاح الدين قد «أتعب نفسه، وأسهر ليله في منازلة صفد حتى فتحها في سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وهو حصن في غاية العلو والارتفاع، مطل على عكا وبلاد الغور...»[٥٤].

وعرف عن صلاح الدين أنه كان مفاوضاً ممتازاً، يحافظ على حقوق المسلمين ولا يفرط بها. ففي نهاية سنة ١١٩١م بات ريتشارد قلب الأسد على مقربة من القدس الشريف. وتراءى للجميع أنه سيهاجم المدينة المقدسة، غير أن مباحثات سرية جرت بين ريتشارد وصلاح الدين في أوائل سنة ١١٩٢ بواسطة الملك العادل شقيق

(٥١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٨٦.

(٥٢) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٩١. المقريزي: الخطط، ج ١، ص ١٨٧. ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٧١.

(٥٣) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٥٤) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٥، ص ٣٠١.

صلاح الدين وهي التي أدت إلى تراجع الصليبيين مؤقتاً عن الهجوم على القدس الشريف لعلهم يستردونها سلماً. ومما قاله رسول ريتشارد للملك العادل:

«انك تسلم عليه، وتقول له: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد، وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد. وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم، وهو عندنا عظيم، فيَمنُّ به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم».

وبعد أن تسلم الناصر صلاح الدين الأيوبي هذه الرسالة، تباحث مع أهل الشورى وأرباب المشورة. ثم أنفذ رسالة إلى ريتشارد عبر رسوله رفض فيها تسليم القدس الشريف، ومما قاله:

«القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يُتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين. وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت. وما أقدركم اللّه على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد اللّه مَغَلَّهُ وننتفع به. وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها»[٥٥].

ونظراً للأوضاع العسكرية والسياسية السائدة في المنطقة، ونظراً لرغبة ريتشارد قلب الأسد في العودة إلى بلاده بسبب أوضاعها الداخلية، ونظراً لأوضاع المسلمين، فقد جرت مراسلات بين الطرفين أبدى فيها الإفرنج الاستعداد لعقد الصلح مع المسلمين، وأرسل ريتشارد رسالة إلى صلاح الدين قال فيها: «إن الملك... راغب في مودتك وصداقتك، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض ولا يظن ذلك

(٥٥) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٩٤. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ٢، ص ١٩٣.

فيه، ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم. وهذا ابن أختي الكندهري قد ملكته هذه الديار، وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا... إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها، وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مقرعة أو قربة قبلتها وقبّلتها»[٥٦].

ولما سمع السلطان صلاح الدين الأيوبي هذه العروض، جمع ـ كعادته ـ أرباب الرأي وأصحاب المشورة، وأشاروا عليه بعقد الصلح، فأرسل صلاح الدين رسالة إلى ريتشارد وافق فيها على إعطائه كنيسة القيامة وبعض المناطق الساحلية، بينما رفض تسليمه عسقلان، لأن سيطرة الصليبيين عليها يقطع الطريق بين مصر والشام[٥٧].

وفي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، عقد صلح الرملة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي والصليبيين بعد معارك في مناطق عديدة. وقد أشار المقريزي إلى هذا الصلح بقوله: «...وعقدت هدنة عامة في البر والبحر... على أن يكون للفرنج من يافا إلى صور وطرابلس وأنطاكية. ونودي في الوطاقات وأسواق العسكر، إلا أن الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل. ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل. وكان يوم الصلح مشهوراً عمّ فيه الطائفتين الفرح والسرور، كما نالهم من طول الحرب، فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة، فأكرمهم السلطان ومدّ لهم الأطعمة وباسطهم ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا، ورحل السلطان إلى القدس...»[٥٨].

أما بالنسبة إلى عسقلان، فبالرغم من محاولات ريتشارد المستمرة، غير أن

---

(٥٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢١٩.

(٥٧) أنظر ابن شداد، المصدر نفسه، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٥٨) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ١١٠.

صلاح الدين رفض جميع عروض الإفرنج لما تمثله عسقلان من موقع استراتيجي هام. فما كان من الملك الإنجليزي إلا أن قال «لكم اطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني. وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي»[٥٩].

وبعد أن وصل إلى صلاح الدين من بيروت خمسة وأربعون أسيراً من الإفرنج، تحادث السلطان مع شيخ هرم من بينهم، وسأله عن سبب مجيئه إلى بلاد الشام، فرد الإفرنجي قائلاً: «وإنما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور». فما كان من السلطان إلا أن رقّ له ومنّ عليه بإطلاق سراحه «وقد أخرجه من ذل الرق إلى عز العتاق ورده إلى الفرنج راكباً على فرس، ولم يرَ قتله ولا أسره، حيث رأى نفساً مرتهنة بنفس». كما منع السلطان بعض الشبان المسلمين من قتل الأسرى. ولما سئل عن سبب ذلك قال: «لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم»[٦٠].

وفي الوقت نفسه صمم صلاح الدين أن تكون عسقلان للمسلمين، وأن على ريتشارد التنازل عنها. ويلاحظ أن صلاح الدين أكد على الاستمرار في الجهاد، وعدم التنازل عن مواقع استراتيجية، مستثمراً ضعف الإنجليز لمصلحة المسلمين. ومما أشار إليه في هذا المجال:

«ما يسهل علي أن أشتي وأصيف، وأشتي وأصيف، وأنا في وسط بلادي، وعندي أولادي وأهلي، ويأتي إلي ما أريده ومن أريده. وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي عندي في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي اللّه النصر لمن يشاء»[٦١].

وفي هذه الفترة وصلت الأخبار إلى صلاح الدين عن مرض ريتشارد قلب الأسد ملك الإنجليز. وبالرغم من العداء بينهما، غير أن صلاح الدين لم يرَ مانعاً من

---

(٥٩) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ٢، ص ٨١.

(٦٠) الأصفهاني: الفتح القسّي في الفتح القدسي، ص ٤٧١.

(٦١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٢٨.

إمداده بما طلب من الطعام والفواكه والأدوية، وأحياناً الأطباء «هذا ورسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج. وأوقع اللّه عليه في مرضه شهوة الكمثري والخوخ، وكان السلطان يمده بذلك»[٦٢].

ونظراً لمعاملة صلاح الدين الحسنة للإفرنج، فقد تودد إليه حاكم الساحل الفلسطيني «كندهري» ابن أخت ملك الإنجليز، فأرسل إلى صلاح الدين رسالة طلب فيها خلعة وقال: «أنت تعلم أن لبس القباء والتربوش عندنا عيب، وأنا ألبسهما منك محبة لك»[٦٣].

وفي هذه الأثناء كان ريتشارد مضطراً للعودة إلى بلاده، تحت وطأة مرضه، ووطأة الأوضاع الداخلية في إنجلترا. بالإضافة إلى أنه كان يواجه دولة صلاح الدين القوية التي تمتد من حلب إلى دمشق وبيت المقدس إلى مصر، وتحيط ببقايا الممالك الصليبية، لذا اضطر ريتشارد إلى التنازل عن عسقلان، ومن ثم عقد صلح الرملة مع صلاح الدين في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/١٢ أيلول (سبتمبر) ١١٩٢م، ثم رحل إلى بلاده وتوفي فيها.

ومن الثابت أن شخصية صلاح الدين الأيوبي كانت شخصية رفيعة المستوى، كريمة الأخلاق. ويظهر ذلك باستمرار من خلال معاملته لأعدائه. وقد أشار الأصفهاني إلى معاملته لأمير أنطاكية بالقول: «إن الابرنس الأنطاكي قد وصل إلى الخدمة، مستمسكاً بحبل العصمة، داخلاً حكم الذمة... وأذن للابرنس في الدخول، وشرفه في حضرته بالمثول وقرّبه وآنسه، ورفع مجلسه، وأظهر له البشاشة والهشاشة... وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونياً... أجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء... وانصرف المذكور مسروراً بين أسرته مذكوراً، محبواً بالمنح والمنن محبوراً»[٦٤].

---

(٦٢) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٣١.
(٦٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٧٩.
(٦٤) الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٦١٨.

ولما عاد صلاح الدين الأيوبي إلى القدس الشريف، أمر القاضي ابن شداد بالإشراف على بناء بيمارستان وإدارة المدرسة التي أقامها في القدس الشريف. وفي طريقه من القدس إلى دمشق كان يقابل الناس في مدن الشام، فيطلع على أحوالهم وأوضاعهم ومشاكلهم، كما حدث في نابلس عندما قدم الأهالي شكوى له ضد المشطوب «يتضورون إليه سوء رعايته لهم»[٦٥]، وقد استجاب لمطالبهم وحل مشاكلهم.

وفي الوقت نفسه حرص السلطان صلاح الدين الأيوبي على القدوم إلى بيروت المحروسة، للاطلاع على أحوال سكانها ومجاهديها، وحل مشاكلهم بعد الحروب الطويلة. كما زاره في الوقت نفسه في بيروت أمير أنطاكية بوهيموند الثالث في أواخر تشرين الأول (أكتوبر) ١١٩٢م، فعامله معاملة طيبة وأكرمه «وبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته»[٦٦].

وبعد اطمئنان الملك الناصر السلطان صلاح الدين على أحوال بيروت والمدن الساحلية الأخرى، وأحوال القلاع وأمور أجنادها، توجه إلى دمشق في ١٦ شوال ٥٨٨هـ. وكان في استقباله أولاده: الملك الأفضل، الملك الظاهر، والملك الظافر، وأولاده الصغار «وكان يحب البلد، ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد».

وفي دمشق المحروسة احتفل الناس بقدومه، وأنشده الشعراء، وأقيمت الاحتفالات، واطلع بدوره على مظالم الرعية. ثم وصل إلى دمشق شقيقه الملك العادل، فأقاما معاً في المدينة مع الأبناء والأقارب، حيث نالوا قسطاً من الراحة بعد جهاد ومرابطة لسنين طويلة. وقد قيل فيه «مآثره في فتح بيت المقدس والاستيلاء على معامل الفرنج بالساحل مشهورة، ومكارمه فيما أرصده في وجوه البِر بالديار المصرية والشامية مذكورة...»[٦٧].

---

(٦٥) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٣٩.
(٦٦) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٤٠.
(٦٧) المرتضى الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، ص ٨٨.

٥ ـ صلاح الدين الأيوبي رافع لواء الشريعة الإسلامية والعدالة الاجتماعية ونصير العلم والعلماء

أشار المؤرخ ابن شداد (٥٣٩ ـ ٦٣٢هـ/١١٤٥ ـ ١٢٣٩م) إلى صفات صلاح الدين الأيوبي، كما أضاف بعض المؤرخين صفات عديدة له.

ومما أشار إليه ابن شداد، أن صلاح الدين كان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء. «وكان ـ رحمه الله ـ قد جمع له الإمام قطب الدين النيسابوري ـ رحمه الله ـ عقيدة يجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم منذ الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه رحمه الله»[٦٨]. ومن يطلع على سيرته الدينية وعلى عدد العلماء الذين أخذ عنهم العلوم يظن أنه فقيه أو عالم قبل أن يكون عسكرياً أو سياسياً[٦٩].

وكان صلاح الدين الأيوبي شديد المواظبة على الصلاة، يحرص على صلاتها مع الجماعة، وكان مواظباً على السنن والفرائض. وكان ابن شداد قد رآه يصلي في مرضه، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي غاب فيها عن الوعي[٧٠]. «وكان حليماً كريماً حسن الأخلاق، متواضعاً صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه»[٧١]. وكان مشغوفاً بمجالسة خواصه من العقلاء، ومؤانسة ذوي اختصاصه من الفضلاء. فإذا أراد الانصراف بعد هزيع من الليل قام إلى صلاة العشاء...»[٧٢].

وكان صلاح الدين الأيوبي حريصاً على أداء الزكاة. ونظراً لورعه وزهده في

(٦٨) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٧.
(٦٩) أنظر أسماء العلماء في: المرتضى الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٧٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٧ ـ ٨.
(٧١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٨٨.
(٧٢) البنداري: سنا البرق الشامي، ق ١، ص ٢٣٣.

الدنيا، فإنه عند وفاته لم يترك في خزانته ـوهو ملك ـ من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجرماً واحداً ذهباً صورياً. «ولم يخلّف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك، رحمة الله عليه»[٧٣]. وأشار ابن العبري إلى كرمه وأخلاقه قائلاً: «وأما كرمه فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرجه. ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزانته غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية»[٧٤]. كما كان حريصاً على صوم شهر رمضان المبارك، ولم يفته سوى صوم رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن صومهما، إلى أن صام أيامهما، بالرغم من أن الطبيب كان يلومه على ذلك. ولم يتسن له تأدية فريضة الحج بسبب جهاده المستمر، ولما نوى ذلك وافته المنية. وفي الوقت نفسه كان صلاح الدين الأيوبي سمّاعاً للقرآن الكريم، قارئاً له، إذا سمعه خشع قلبه، ودمعت عيناه. كما كان حريصاً على سماع الأحاديث الشريفة. وقد قصد الاسكندرية من أجل ذلك، للاستماع إلى الحافظ الأصفهاني، وروى عنه أحاديث كثيرة[٧٥]، وهو المعروف باسم الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي «وداومنا الحضور عنده، واجتلينا من وجهه نور الإيمان... وشاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر بإتمام الثغور وتعمير الأسطول»[٧٦]. وفي الاسكندرية صام جزءاً من رمضان، ثم صام بقية الشهر في القاهرة، «والسلطان متوفر في ليله ونهاره، على نشر العدل وإنشاره، وإفاضة الجود وإغزاره، وسماع أحاديث الرسول ﷺ وأخباره، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإعدام أعلام الباطل وانكاره»[٧٧].

وكان الناصر صلاح الدين عادلاً، ينصر الضعفاء، يجلس للبت في قضايا

(٧٣) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨، ١٧.
(٧٤) ابن العبري: المصدر السابق، ص ٣٨٩.
(٧٥) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٨ ـ ٩.
(٧٦) أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٩.
(٧٧) أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٩٠.

الناس كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، في الأوقات الذي لا يكون منشغلاً في الجهاد، ويحضر هذا المجلس الفقهاء والقضاة والعلماء، وينتهي المجلس إلى البت بجميع القضايا التي تثبت عدله واهتمامه بقضايا المسلمين وتثبت كرمه وعطاياه(٧٨). كما أشار ابن شداد إلى شجاعته «وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير...»(٧٩).

وكان مهتماً اهتماماً بالغاً في أمر الجهاد «ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه [بلاده]، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة...»(٨٠)، وأشارت المصادر التاريخية إلى الكثير من صبره على الصعاب والمشاق، وإلى حلمه وعفوه ومروءته وأخلاقه، وحبه للعرب والحفظ لأنسابهم وأحوالهم «وما سطرت إلا ما شاهدته، أو أخبرني الثقة به وحققته»(٨١).

وكانت تلك الصفات الشخصية للناصر صلاح الدين الأيوبي عوامل أساسية مؤثرة وفاعلة في ممارساته السياسية والعسكرية والاجتماعية والإنسانية والدينية. وقد انتشرت في دمشق أقوال مأثورة عن صلاح الدين منذ عهد الملك نور الدين منها على سبيل المثال: «الناصر للصليب كاسر، وللقدس طاهر، من كل رجس فاجر، الظاهر بالله ظاهر، قاتل كل كافر، وللتتار قاهر، من كل فاجر وعاهر، الناصر النور الباصر، بالشرق ظافر، يطيها بالخف والحافر، بعد ثلاث تواتر»(٨٢).

---

(٧٨) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٣ ـ ١٦، ١٧ ـ ١٨.

(٧٩) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٨٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣. وقد أشار ابن شداد في «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، ص ٢١، إلى أنه ألف كتاباً آخر عن صلاح الدين «جمعت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله، وشرحت غريبها. وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل». ومن أولاده الآخرين الملك الظاهر والملك الظافر إسماعيل.

(٨١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٤ ـ ٣٤.

(٨٢) الدوداري (أبو بكر بن عبد الله بن ايبك): كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٨، ص ٢٧٥.

ومن الأهمية بمكان أن الناصر صلاح الدين الأيوبي(٨٣) اعتمد أسلوباً جديداً في إدارة الحكم ـ على غرار ما سبق أن قام به الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ـ(٨٤) من ضرورة تسلم العرب والمسلمين للإدارة. فقد أصدر «الأمر الشريف» بعدم استخدام أهل الذمة في الديوان، الذين كانوا يعملون «في الديوان وفي المخزن لاستيفاء الأموال ورفع الحساب من قبل»، لأنه رأى في ذلك إذلالاً للمسلمين غير أن الاستادار طلب التريث في تنفيذ هذا الأمر، حتى يؤخذ أصول الأموال من الموظفين النصارى في الديوان، حتى لا يسقطوا حقوق الديوان، إذا ما علموا أمر صرفهم من الخدمة، فما كان من صلاح الدين إلا أن غضب وقال: «ما إلى هذا سبيل، ولو ذهب أصل بيت المال، ولا يبقى أحد من الكفار في شيء من الأعمال»(٨٥).

وبالفعل فقد تم صرف من كان بخدمة الديوان من أهل الكتاب، كأولاد النظام، وأولاد زطينا وابن الأشقر كاتب ديوان العرض. وأعيد إلى العمل من اعتنق الإسلام مثل «ابن الأشقر». واعتبر الأيوبي أن ما فعله الناصر لدين الله «من مكارم أخلاق أمير المؤمنين الناصر لدين الله، لأنه لم يسبق إليها ولم يعتمدها سواه»(٨٦).

كما كان صلاح الدين الأيوبي مؤمناً ورعاً، محافظاً على مصالح رعاياه، يرفض الحقد وسياسة الغدر وإراقة الدماء. وقد عبّر عن سماته من خلال وصيته لابنه الملك الظاهر غازي قبل رحيله إلى امارته في حلب وشمال الشام والقرى. ومما قاله:

«أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به، فإنه سبب نجاتك. وأحذِّرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام. وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم. وأوصيك

---

(٨٣) يلاحظ بأن صاحب حماه محمد بن شاهنشاه أطلق على صلاح الدين لقب «الإمام الناصر لدين الله ـ صلوات الله عليه» أنظر: مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص ٧٣.

(٨٤) أنظر كتابنا: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار النهضة العربية، بيروت١٩٨٨.

(٨٥) ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص ٧٣.

(٨٦) ابن شاهنشاه الأيوبي، المصدر نفسه، ص ٧٤.

بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس. ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يُبقي على أحد. وحذار ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم»[٨٧].

وكان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي حاكماً مؤمناً بالشورى، يرفض التفرد والفردية في اتخاذ القرارات. وقد شهدت حياته الكثير من المواقف التي تؤكد على إيمانه بالشورى، فعند عقد الصليبيين لعقد صلح الرملة مع المسلمين ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، جمع أرباب الرأي وأصحاب المشورة لأخذ رأيهم[٨٨]، وحول موضوع أنطاكية، جمع صلاح الدين ـ كعادته ـ أهل الشورى والرأي وعرض عليهم المطالب الصليبية، وتشاور معهم، واتخذ القرار المناسب[٨٩].

وكان صلاح الدين مجاهداً، صبوراً، كريماً، عادلاً، فيه مروءة، محباً للشعر والأدب والعلم والعلماء الذين منحهم الأموال[٩٠]. وقد أشار ابن شداد إلى أنه منذ أن تسلّم الوزارة في مصر شجع العلم والعلماء فشاع في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين، والناس يدعون إليه من كل صوب...»[٩١]. «واشتغل بمصالح الدين والدولة والجلوس في دار العدل يومي الاثنين والخميس لتشييد منار الحق وتفريج الكرب وإسداء المعروف وكشف المظالم»[٩٢]. ونظراً لأهمية الجهاد والرباط في حياته، فقد جعل للجهاد وللمرابطين أوقافاً خاصة. وقد أشار أبو شامة إلى ذلك بقوله: «ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفية بحارة قطامش جوار

(٨٧) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٣٨.
(٨٨) ابن شداد، المصدر نفسه، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٨٩) ابن شداد، المصدر نفسه، ص ٢٢١. أنظر أيضاً المصدر نفسه صفحات ١٣١، ١٧١، ١٩٤، ٢٢٢ وصفحات أخرى متفرقة تدل على مدى إيمانه بالشورى.
(٩٠) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٩٧.
(٩١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٤١. أنظر أيضاً: البنداري: سنا البرق الشامي، ق ١، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.
(٩٢) ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص ٥٣. أنظر أيضاً: ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٥، ص ٣١٣.

السلطان وقف قرية حزم باللوى من حوران «على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو من يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي رحمه الله تعالى، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النيسابوري ـ رحمه الله ـ. ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله: الحمد لله وبه توفيقي»[٩٤]. بالإضافة إلى أن صلاح الدين خصص الكثير من الصدقات والحسنات لفقراء المسلمين، على غرار ما فعل في دمشق المحروسة[٩٥]. وفي عهده عرّب القاضي قوام الدين الفتح بن علي البنداري الأصفهاني كتاب «كيمياء السعادة» للإمام الغزالي في مجلدين[٩٦].

وأشار ابن جبير في رحلته الى إصلاحات صلاح الدين الأيوبي، ورفعه الظلم وإلغائه الضرائب عن الحجاج، وهي الضرائب التي فرضها الفاطميون. ومن كان يعجز عن أداء هذه المكوس يعذب عذاباً أليماً في عيذاب ثم في جدة. فما كان من صلاح الدين إلا أن ألغى هذا المكس. وخصص لأهل الحجاز معونة توازي قيمة ما كانوا يحصلون عليه من قيمة مكس الحجاج «فكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً»[٩٧] وعوض أمير مكة مبلغ ثمانية آلاف اردب قمح ينقل سنوياً إلى ساحل جدة[٩٨]. واستعاض عن جميع تلك الضرائب والمكوس بالزكاة، فأنشأ ديواناً خاصاً عرف باسم «ديوان الزكاة»[٩٩].

(٩٣) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ٢، ص ٣٩٥، ٦٨٦.
(٩٤) أبو شامة، المصدر نفسه، ص ٦٧٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٩٣.
(٩٥) البنداري، المصدر السابق، ق ١، ص ٣١١ ـ ٣١٢.
(٩٦) البنداري، المصدر نفسه، ص ٣٥٨.
(٩٧) ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ٢٠ ـ ٢١. أنظر أيضاً: البنداري، المصدر السابق، ق ١، ص ٣٠٣.
(٩٨) الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، البنداري: سنا البرق الشامي، ق ١، ص ٣٠٤. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ق ١، ج ٨، ص ٣٣٨.
(٩٩) المقريزي: الخطط، ج ١، ص ١٠٨.

والحقيقة فإن صلاح الدين لم يرفع الظلم والضرائب عن الحجاج فحسب، وإنما أيضاً عن سائر المصريين. ومما جاء في هذا المجال: «أبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم، ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقه جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين متقدمة، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلة، فسامح في جميع ذلك، وأبطله من الدواوين وأسقطه عن العاملين. وأنهى إليه ما يستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس، فأنكره وأكبره وعوض عنه بعدة ضياع، فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها»[100]. كما أبطل صلاح الدين المكوس التي كانت تؤخذ من حجاج وتجار اليمن[101]، وأسقط بالتالي المكوس والضرائب المفروضة على سنجار في سنة ٥٧٨هـ[102].

ونظراً لتقيد صلاح الدين الأيوبي بأحكام الشرع الشريف، فقد أبطل في سنة ٥٧٩هـ جميع المكوس والضرائب غير الشرعية التي سبق أن فرضها وجباها عماد الدين زنكي الثاني ـ أخو عز الدين مسعود ـ أتابك الموصل من أهالي حلب. ثم أسقط مكوس الرقة وأصدر منشوراً لأهاليها حدد فيها الأسباب الداعية إلى إلغاء هذه المكوس لأن «أشقى الأمراء من سمن كيسه وأهزل الخلق، وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسمّاه الحق...»[103].

---

(١٠٠) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٣، ٥٢٢ ـ ٥٢٣. أنظر أيضاً: مقدمة ابن خلدون، ص ٢٨١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٦٨. المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٧٠.

(١٠١) المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٧٤.

(١٠٢) ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص ١١١.

(١٠٣) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤٧.

هذا، وقد أقام صلاح الدين الأيوبي العديد من الكتاتيب والمدارس، وخصص لها المدرسين والأوقاف والأرزاق للإنفاق عليها، وعلى طلبة العلم فيها. كما أقام البيمارستان الكبير في القاهرة «ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهبّ إلى مواهب فأسداها، واهتم بفرائض ونوافل فأداها»[104].

بالإضافة إلى أن مصر قد شهدت في عهده الكثير من التنظيمات الإدارية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والدينية. ومن يطلع على كتاب ابن مماتي الوزير الأيوبي المتوفى(٦٠٦هـ/١٢٠٩م) الموسوم باسم «قوانين الدواوين» يدرك أهمية هذه التنظيمات وأقسامها وأنواعها[105]. وفي حين أبطل الرسوم والمكوس غير الشرعية، غير أنه فرض ضرائب لا سيما على التجار الأجانب[106] كانت تنفق على مصالح أهل البلد، مما جعل أهل الاسكندرية يعيشون حياة ملؤها الرفاهية والسعة[107].

٦ ـ أواخر أيام صلاح الدين الأيوبي كما رواها القاضي ابن شداد

أشار ابن شداد إلى أن صلاح الدين الأيوبي كان في أواخر أيامه قليل الأكل، يميل إلى الأطعمة الخفيفة، «وكان في هذه الأيام يعتذر للناس لثقل الحركة عليه، وكأن بدنه كان ممتلئاً، وعنده تكسّل»[108]. علماً أنه ظل يحرص على استقبال «رسل الافرنج وجماعة الأمراء والأكابر». كما حرص في هذه الفترة من سنة ٥٨٩هـ على الخروج مع صحبه لاستقبال الحجاج «وكان كثير الاحترام للمشايخ ـ قدس اللّه روحه ـ فلقيهم... وكان يوماً عظيماً قد اجتمع فيه للقاء الحاج، والتفرج على السلطان، معظم من في البلد... فسار حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر إلى القلعة وهو طريقه المعتاد، وكانت آخر ركباته ـ رحمة اللّه عليه وقدس روحه ـ »[109].

---

(١٠٤) للمزيد من التفصيلات أنظر: أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٨.

(١٠٥) ابن مماتي: كتاب قوانين الدواوين، صفحات ٥١ ـ ٣٧٢.

(١٠٦) ابن مماتي، المصدر نفسه، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(١٠٧) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٢.

(١٠٨) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٤٢.

(١٠٩) ابن شداد، المصدر نفسه، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

وفي منتصف شهر صفر سنة ٥٨٩هـ، أصابته حمّى صفراوية وكانت شديدة الوطأة عليه، وأخذ وضعه يسوء «وكان مرضه في رأسه - رحمة اللّه عليه - وكان من امارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفراً وحضراً، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في اليوم الرابع من مرضه فاشتد مرضه، وقلّت رطوبات بدنه... ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف...»(١١٠).

وكانت ردود الفعل قوية على مرضه، فاضطرب الناس خوفاً في دمشق وأرجاء البلاد، وتكاثرت جموع الناس حول القلعة، ما بين مستفسر أو داعٍ له بالشفاء. ولم يسمح بالدخول عليه لسوى القاضي ابن شداد والقاضي الفاضل «وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته... وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا حتى تقرأ أحواله من صفحات وجوهنا»(١١١).

ولما رأى الملك الأفضل ابن صلاح الدين، ما حل بوالده من تدهور سريع في صحته، دعا الأمراء والقادة إلى قسم يمين الولاء لوالده طالما هو على قيد الحياة، وله من بعد وفاة والده(١١٢).

وفي ليلة الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ، اشتدت وطأة المرض على صلاح الدين، وكان الشيخ أبو جعفر يتلو القرآن الكريم، ويذكره باللّه تعالى إلى أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللّهُ الذي لآ إِلَهَ إلاّ هو عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهادة﴾(١١٣)، قال صلاح الدين «صحيح». ولما وصل الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: ﴿لآ إله إلا هو

---

(١١٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(١١١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٤٤. وكان صلاح الدين قد أصابه مرض عندما كان في حران قبل سنوات من وفاته. ونتيجة لمحبة الناس له، بدأوا بالدعاء بشفائه. وقد سمع صلاح الدين ضجة في الخارج فسأل عن سببها فقيل له: «هؤلاء الوافدون عليك قد اجتمعوا على بابك متأسفون على ما بك» قال: «فأمرني بكتب أسمائهم فكانوا خلقاً كثيراً، فأعطى كلاً منهم على قدره وما قسم اللّه تعالى على يده، فكان مالاً كثيراً». ابن شاهنشاه الأيوبي، المصدر السابق، ص ٢٢٦.

(١١٢) أنظر قسم اليمين في: ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(١١٣) سورة الحشر، الآية ٢٢، وتتمة الآية ﴿هو الرحمٰن الرحيم﴾.

عليه توكّلت﴾ تبسم صلاح الدين وتهلل وجهه وسُلِّمت روحه لرب العالمين، وذلك بعد صلاة الصبح من ليلة الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ/آذار (مارس) ١١٩٣م(١١٤)، تاركاً تسعة عشر ولداً. وكان ابن شداد قد تخوّف قبل الوفاة بساعات، من أنه في حال معرفة الناس بوفاة صلاح الدين «فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً». وبعد الوفاة علّق ابن شداد على الحدث الجلل بقوله: «وكان يوماً لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلا اللّه تعالى(١١٥)، وتمنى الناس لو أن باستطاعتهم أن يفدوا بأنفسهم وباعز ما يملكون، ولكن كان أمر اللّه محتوماً».

ووصف ابن شداد هول الناس من خبر الوفاة، ثم وصف تغسيله وتكفينه والصلاة عليه بإمامة القاضي محي الدين ابن الزكي، ودفنه في الجهة الغربية من الدار الذي مرض بها في داخل بستان. وبعد الدفن بدأ ولده الملك الأفضل وأولاده بتقبل العزاء ومراسلة اخوته وعمه، وقد تكلم المتكلمون «ولم ينشد شاعر». واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن الكريم والدعاء له(١١٦).

هذا وقد أنهى ابن شداد كتابه عن صلاح الدين بقوله: «وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله. هذه أخبار الملك الناصر أبي المظفر يوسف بن أيوب - رحمة اللّه عليه - فرغت من جمعها يوم وفاته - رحمة اللّه عليه - وقصدت بذلك وجه اللّه تعالى في حث الناس على الترحم عليه، وذكر محاسنه، واللّه يحسن خلافته من بعده، ويجزيه ما هو أهله، بمحمد وآله، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل»(١١٧).

هذا، وقد دفن الناصر صلاح الدين الأيوبي في قلعة دمشق، إلى أن شُيِّد له ضريح متوج بقبة في شمال الكلاسة، شمالي جامع دمشق قرب المدرسة العزيزية التي بناها العزيز عثمان بن صلاح الدين، فنقل إليها. وما يزال ضريح صلاح الدين

---

(١١٤) المرتضى الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، ص ٨٨.

(١١٥) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(١١٦) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(١١٧) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٤٧.

إلى اليوم بمحاذاة الجامع الأموي الكبير في دمشق.

٧ ـ خاتمة واستنتاجات

عندما تولى الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م) زمام المسؤولية السياسية والعسكرية، كان لما يزل شاباً يافعاً في العشرينات من عمره. وقد أثبت منذ البداية نضوجاً وتحسساً بالمسؤولية الملقاة على عاتقه سواء في مصر أو في بلاد الشام. وقد أثبت نجاحاً ووعياً في الأمور السياسية والعسكرية، والدينية والشرعية، والاجتماعية، والإنسانية والاقتصادية، والعلمية والعمرانية.

وانطلاقاً من مسؤوليته في تولي السلطة السياسية على قواعد إسلامية، فقد حرص على التقيد بأهداب الدين والشرع الحنيف، وبالأحكام السلطانية وبالحرص على ترقي وتطوير بلاد مصر وبلاد الشام وعلى وحدتهما السياسية والعسكرية.

ومن خلال سيرته وتاريخه الحافل بالأحداث، يمكن التوصل إلى بعض الاستنتاجات نوردها فيما يلي:

أولاً ـ على الصعيد السياسي والعسكري

تربى صلاح الدين الأيوبي منذ صغره تربية سياسية وعسكرية في كنف والده نجم الدين أيوب بن شاذي والي قلعة تكريت ووالي بعلبك في ما بعد. كما تدرب على عمه القائد أسد الدين شيركوه الذي صحبه معه إلى مصر لمساندة الوزير الفاطمي شاور، ولحماية مصر من أطماع الصليبيين. وقد أثبت صلاح الدين في مصر الحنكة والدراية بحيث بات عمه شيركوه «لا يفصل أمراً ولا يقرر حالاً إلا بمشورته ورأيه».

وفي هذه الفترة المبكرة شارك صلاح الدين في محاربة الصليبيين في الأراضي المصرية. كما قاتل بعض القيادات الإسلامية أمثال الوزير شاور الذي كان يتعاون مع

الصليبيين ضد المسلمين[١١٨]. وما أن توفي عمه أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، حتى فوض الخليفة الفاطمي أمر مصر إلى صلاح الدين الأيوبي، وكان في الحادية والثلاثين من عمره، فاستطاع تثبيت الأمن في مصر، واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المبين[١١٩].

ومنذ أن تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة في مصر، حرص على البدء في مسيرة تحرير البلاد الشامية من الغزو الصليبي، والسعي بجدية لتوحيد مصر وبلاد الشام من أجل هدف التحرير. وفي الوقت الذي أمسك صلاح الدين بزمام الأمور في مصر، كانت الخلافة الفاطمية تتداعى فيها، ولما كانت فئات الشعب المصري قد أبدت استياءها من ممارسات الحكم الفاطمي، الأمر الذي شجع صلاح الدين على تثبيت حكمه، وبالتالي على إرساء وتدعيم المذهب السني بإلحاح وتأييد من نور الدين زنكي. ومنذ تلك الفترة حتى وفاة الخليفة الفاطمي العاضد، بدأت مصر تتحول تباعاً من المذهب الشيعي إلى المذهب السني.

وصارت الخطبة في مصر تخطب باسم صلاح الدين، وباسم الخليفة العباسي المستضيء، وباسم الملك العادل نور الدين في دمشق. وساعدت الظروف على ازدياد نفوذ صلاح الدين السياسي، إذ تلقى خبر وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م، وكان ابنه الملك الصالح إسماعيل لما يزل صغيراً، ولا يستطيع النهوض بأعباء الحكم. لذا استطاع صلاح الدين أن يمسك بقوة زمام الأمر في مصر وبلاد الشام معاً، مما سهل له الأمر بتوحيدها تباعاً.

ومنذ هذا التطور السياسي، بدأت مهمة صلاح الدين الجهادية تزداد في مواجهة الصليبيين الذين انتصر عليهم في أكثر من معركة بواسطة عساكره في مصر والشام[١٢٠]. ومن بين هذه المعارك والمواقع، حصن هونين، وأرض الرملة وتل

---

(١١٨) البنداري، سنا البرق الشامي، ق ١، ص ٦١.

(١١٩) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤٠، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٠.

(١٢٠) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٥١ ـ ٥٢.

القاضي في سهل مرج عيون، وحصن الأحزان، ومعركة طبرية والمناطق الساحلية، ومعركة حطين، وعكا، ونابلس، وحيفا، وصفورية، والناصرة، وتبنين، وبيروت، وجبيل، وعسقلان، وسواها من المناطق العديدة المتنوعة، وكان هدفه الأسمى تحرير بيت المقدس الذي استطاع تحريره فعلاً في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[١٢١].

وتبرز سمات صلاح الدين السياسية والإنسانية من خلال معاملته السامية للأسرى الإفرنج من كبار السن والنساء والعجزة والأطفال، حيث عوملوا معاملة حسنة وكريمة[١٢٢]. كما عرف عن صلاح الدين الأيوبي أنه كما كان عسكرياً ممتازاً في الحرب، فهو مفاوض ممتاز في السلم، يحافظ على حقوق المسلمين ولا يفرط بها مطلقاً. وقد أثبتت جميع المباحثات السياسية والسلمية، والمعاهدات التي عقدت مع الإفرنج صحة هذا القول[١٢٣].

ثانياً ـ على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والعمراني

حرص صلاح الدين الأيوبي منذ أن تسلم زمام الحكم في مصر وبلاد الشام على تطوير أوضاعهما الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية. فاهتم بالزراعة والصناعة والتجارة. وكانت الأوضاع الاقتصادية متطورة في عهده وفي جميع مراحل العهد الأيوبي. كما أقام نظاماً مالياً متطوراً أخذ فيه بعين الاعتبار واقع فئات الشعب، فقضى على الاحتكار والضرائب غير الشرعية. كما تطورت العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام من جهة وبين المدن الإيطالية وسواها[١٢٤].

---

(١٢١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٧٠٣. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٧. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٨٣. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(١٢٢) مذكرات جوانفيل (القديس لويس): حياته وحملاته على مصر والشام، ص ١٧٣، ١٨٠.

(١٢٣) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٩٤، ٢١٩ ـ ٢٢٠. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ٢، ص ١٩٣.

(١٢٤) للمزيد من التفصيلات أنظر: ابن مماتي: كتاب قوانين الدواوين، صفحات متفرقة من الكتاب لا سيما صفحات ٥١ ـ ٣٧٢. المقريزي: الخطط، ج ١، ص ١٠١ ـ ١٠٢، ١٠٩ ـ ١١٠، ١٥١. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٧، ٤٧٠ ـ ٤٧١. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١، ص ٢٤٣. النويري: نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٥٤ ـ ٢٧١.

وعلى الصعيد العمراني، شهدت بلاد الشام تطوراً عمرانياً ملموساً تمثّل ببناء البيمارستانات والحمامات العامة، والمنشآت العلمية مثل المدارس، والمنشآت الدينية مثل المساجد والخوانق والتكايا والزوايا. وشهدت القاهرة عمائر ضخمة، حيث أوعز صلاح الدين إلى الوالي بهاء الدين قراقوش في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، بالاهتمام بأسوار القاهرة. ثم ببناء قلعة عسكرية لحماية المدينة وسكانها، فاختار مكاناً مرتفعاً مشرفاً على جميع مداخل المدينة، وعلى جميع التحركات العسكرية. واعتبرت القلعة في جبل المقطم من أهم منشآت صلاح الدين الحربية، ومن عجائب الدنيا في تلك الفترة. وقد بدأ بتشييدها سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، وأتمها سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م[١٢٥]. وباتت القاهرة مدينة فاخرة راقية رصفت منازلها وقصورها بالرخام، وسقوفها من أخشاب النخل، وجرى دهان وتبييض جدرانها باللون الأبيض. وشهدت القاهرة أبنية من طبقتين وأربع طبقات[١٢٦].

وتميزت القاهرة في عهد صلاح الدين الأيوبي بالنظافة في شوارعها ودروبها وخططها. كما شهدت إقامة الحمامات العامة المرتبطة أساساً بالنظافة والطهارة، وأشار البغدادي في كتابه إلى وصف دقيق لهذه الحمامات[١٢٧]. ونظم صلاح الدين الأوضاع الإدارية في الدولة الأيوبية، حيث كان للمحتسب دور هام في إدارة وتنظيم ومراقبة الأسواق وحركتها[١٢٨]. كما أصدر عدة تشريعات اهتمت بالواقع الاجتماعي لمختلف طبقات الشعب، محاولاً إيجاد العدالة والمساواة، والقضاء على الاحتكار والإقطاعية التي بدأت تنتشر في الشرق مع قدوم الصليبيين.

---

(١٢٥) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٨. البنداري: سنا البرق الشامي، ق ١، ص ٢٣٩ ـ ٢٤١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٤ ـ ٤٦. القلشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٦٨. ابن جبير: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار،، ص ٥١.

(١٢٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥٣.

(١٢٧) البغدادي: كتاب الإفادة والاعتبار، ص ٣٩.

(١٢٨) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، صفحات متفرقة من فصول وأبواب الكتاب الذي يبحث في مراقبة المحتسب على جميع شؤون الأسواق والمدن والمهن والحرف.

ثالثاً ـ على الصعيد الديني والعلمي

نظراً لمكانة صلاح الدين الأيوبي التي احتلها في العالم الإسلامي، فقد كتب فيه الكثير نثراً وشعراً. وما من مصدر من المصادر التاريخية العربية التي كتبت عن العهد الأيوبي، إلا ومدحته على وجه الإجمال باستثناء قلة من أعدائه. وقد أطلق الأمير أسامة بن منقذ الشيزري على صلاح الدين بأنه «مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، جامع كلمة الإيمان، قامع عبدة الصلبان، رافع علم العدل والإحسان، محيي دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن أيوب. جمّل اللّه الإسلام والمسلمين بطول بقائه، وأيدهم بماضي سيوفه وآرائه... والسلطان الذي أحيا سنة الخلفاء الراشدين، وأقام عمود الدولة والدين،... فلا زالت الأمة من سيوفه في حمى منيع... ومن عدله في أنوار تكشف عنهم ظلم المظالم، وتكفّ بسطة المعتدي الغانم، ومن دولته القاهرة في ظل وارف...»[١٢٩].

واهتم صلاح الدين الأيوبي بإنشاء المدارس الدينية لتعليم وتحفيظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والنحو والفلسفة، وذلك لعلمه أهمية المدارس في نشر وحفظ الشريعة الغراء. كما اهتم بالفقراء وبالوافدين المسلمين من المغرب إلى الشام، ومصر، وأقام لهم بيمارستانات وحمامات ومدارس وزوايا خاصة، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر، كما خصص لهم الأوقاف[١٣٠].

ورأى صلاح الدين أهمية التعليم، سلك مسلك السلاجقة، الذين رأوا أهمية إقامة المدارس بهدف نشر المذهب السني، فاقتدى بهم، وأقام مدارس لتعليم الأطفال والشبان المذهب السني، كما أقام مدارس لتعليم المذاهب الفقهية السنية، وفي مقدمتها المذهب الشافعي، والمذهب المالكي، بالإضافة إلى مذهب الإمام أبي حنيفة[١٣١]. ومن بين هذه المدارس في مصر المدرسة الشافعية المعروفة باسم

(١٢٩) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ٢١٣ ـ ٢١٥.

(١٣٠) ابن جبير: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ١١ ـ ١٢، ٥٠ ـ ٥٢، ٢٧٨.

(١٣١) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٤٣. أنظر أيضاً: ابن خلكان: المختار من ترجمة السلطان صلاح الدين، ص ٤٢٨ ـ ٤٣٠.

المدرسة الناصرية، والمدرسة المالكية، والمدرسة الحنفية المعروفة بالمدرسة السيوفية، والمدرسة القمحية، والمدرسة الصلاحية الناصرية، والمدرسة الفاضلية، والمدرسة العادلية وسواها، كما أقام والأسرة الأيوبية الكثير من المدارس المماثلة في دمشق.

وارتبط بالمدارس والتعليم، إنشاء المكتبات الخاصة والعامة في العصر الأيوبي التي تزايدت بشكل ملحوظ عما كان سائداً في العصر الفاطمي. وكان الدافع الحقيقي للنهضة الدينية والفقهية والعلمية في مصر وبلاد الشام، حرص صلاح الدين الأيوبي على ربط الجهاد بالدين، لعلمه أن الشريعة الإسلامية تحث المسلمين على الجهاد، وعلى رفض الظلم والاضطهاد. لذلك نراه شخصياً يتلقى العلوم الفقهية على عدد كبير من الفقهاء، مما يتراءى للدارس بأنه كان مهتماً بالفقه والشريعة، كاهتمامه بالجهاد والفتح[١٣٢].

وكان صلاح الدين الأيوبي شديد المواظبة على الصلاة، لا سيما صلاة الجماعة. وكان مواظباً على السنن والفرائض «وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي غاب فيها عن الوعي»[١٣٣]. كما كان حريصاً على أداء الزكاة، كارهاً لجمع الأموال وتخزينها إلا لهدف الجهاد وتمويل الحملات العسكرية. ومما يدل على ذلك أنه عند وفاته لم يترك في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجرماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يترك ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً...»[١٣٤]. وكان حريصاً على صوم شهر رمضان المبارك، وإرساء دعائم الشرع الحنيف، ومحاربة الباطل وأنصاره[١٣٥].

واستناداً إلى الشرع الحنيف والسنة النبوية، فقد كان صلاح الدين الأيوبي حاكماً مؤمناً بالشورى، رافضاً التفرد في اتخاذ القرارات المتعلقة بواقع ومستقبل المسلمين. لذا حرص أثناء بحث جميع الأمور السياسية والعسكرية والحياتية التباحث

(١٣٢) أنظر أسماء العلماء والفقهاء الذين تلقى صلاح الدين الأيوبي عليهم في: المرتضى الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، ص ٨٧ ـ ٨٨.

(١٣٣) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٧ ـ ٨.

(١٣٤) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٨، ١٧.

(١٣٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٦٩٠.

والتشاور مع أصحاب الرأي والمشورة(١٣٦). واستناداً إلى الشرع الحنيف أيضاً، أوقف الكثير من الأوقاف الإسلامية على العلم والعلماء(١٣٧). كما ألغى وأبطل الرسوم والمكوس والضرائب غير الشرعية التي كانت مفروضة على المسلمين منذ العهد الفاطمي(١٣٨).

والحقيقة فإن سيرة صلاح الدين الأيوبي في ميادين الجهاد والعلم والشرع والعدالة والمساواة، كانت مدرسة فكرية ونبراساً حياً، وقاعدة تأسى بها الخاصة والعامة ممن جاء بعده، لذلك نرى أن سلاطين المماليك حرصوا من بعده على الاستمرار في ميدان تحرير الأراضي الإسلامية من الغزو الصليبي. وقد استمروا في الجهاد حتى تحرير بلاد الشام عام ١٢٩١م، على يد الأشرف خليل بن قلاوون.

ومن الأهمية بمكان الاشارة، الى ان بعض المؤرخين اللبنانيين أبدوا خصومة واضحة لصلاح الدين الأيوبي في المرحلة الراهنة، من منطلقات ذاتية، علماً ان الرجل (وهو السني) عندما توجه الى مصر بدعوة من الخليفة الفاطمي (وهو الشيعي) لم تكن توجهات صلاح الدين ولا العاضد في تلك الأثناء توجهات مذهبية أو طائفية، بل كانت توجهاتهما اسلامية هدفها تخليص مصر من العدو المشترك في الداخل والخارج، سواء من المسلمين أو الافرنج.

وبكلمة أخرى، فإن صلاح الدين الأيوبي يعتبر من الشخصيات المميزة والنادرة في التاريخ الإسلامي والعالمي، لما تركه من آثار ونتائج سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وإنسانية وعمرانية ودينية، كان لها ـ ولا يزال ـ أعظم الأثر على واقع المسلمين وعلى مستقبلهم في تلك الحقبة الزمنية. كما كان لها الأثر البالغ على واقع ومستقبل المسلمين ممن جاؤوا بعده، ولآجال بعيدة.

---

(١٣٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، صفحات متفرقة منها صفحات: ١٣١، ١٧١، ١٩٤، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢...

(١٣٧) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٣٩٥، ٦٧٥، ٦٨٦.

(١٣٨) ابن جبير: تذكرة بالأخبار، ص ٢٠ ـ ٢١. البنداري، سنا البرق الشامي: ق ١، ص ٣٠٤. أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٨. ابن مماتي: كتاب قوانين الدواوين، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

والجدير بالذكر أن «الذاكرة التاريخية» العربية والإسلامية تستذكر باستمرار، ومنذ وفاة صلاح الدين الأيوبي وحتى اليوم بطولات وأمجاد العرب والمسلمين التي تحققت في عهده، وتستلهم إنجازاته في الحرب والسلم وفي نصرة أخوانه في مصر وبقية البلاد الإسلامية، وتستذكر تحقيقه للوحدة بين مصر وبلاد الشام مقدمة لتحقيق النصر على الأعداء. وقد ثبت أن الكثير من طلاب الأمس وزعماء اليوم في العالمين العربي والإسلامي كانوا قد اتخذوا من سيرة صلاح الدين الأيوبي نبراساً وقدوة يتأسون بها، ويسيرون على دربها. لذا فإن «الذاكرة التاريخية» المجيدة، ما تزال ـ وستبقى ـ تقوم بدور أساسي من أجل إفراز جيل وقيادات تعمل من أجل وطنها وأمتها مستلهمة أعمال وأمجاد وبطولات رجالاتها الأبرار. أما المنهج التاريخي عند بعض المؤرخين الهادف إلى تشويه التاريخ الإسلامي، فإنه يمكن أن يؤدي إلى تشويه جميع جوانب النشاط الإسلامي، وبالتالي إلى زعزعة الثقة بالمجاهدين والأبرار والشهداء، وخطورة الموضوع أن المستشرقين والأعداء يعتمدون على مثل هذه الكتابات التاريخية للإسهام بشكل أوسع في تشويه صورة الإسلام والمسلمين والعرب. وبعد، فإذا حاولنا أن نشكك بهذا العالم وذاك المجاهد، وهذا الشهيد، وذاك المناضل ـ كما يفعل بعض المؤرخين اليوم ـ فماذا يبقى من تاريخنا ومن صفحاتنا المجيدة التي ما تزال عاملاً أساسياً لحاضرنا ومستقبلنا؟

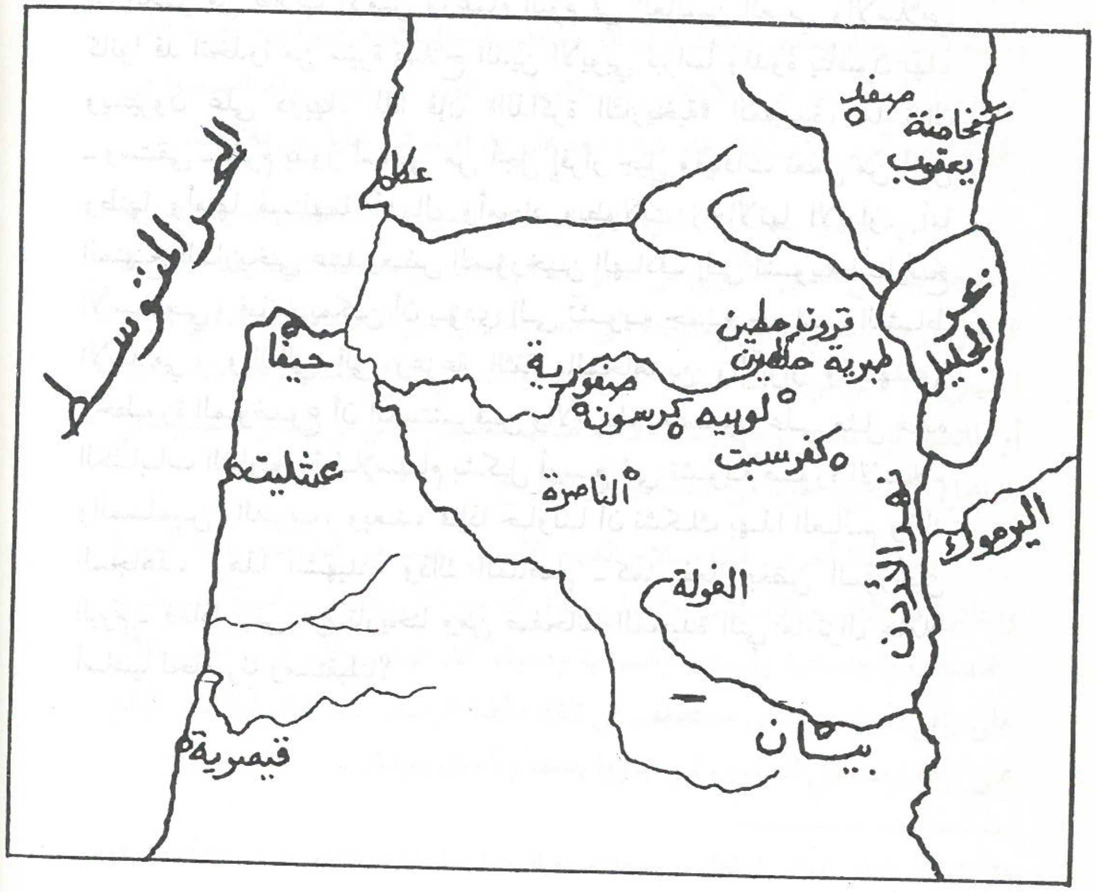

معركة حطين سنة ١١٨٧

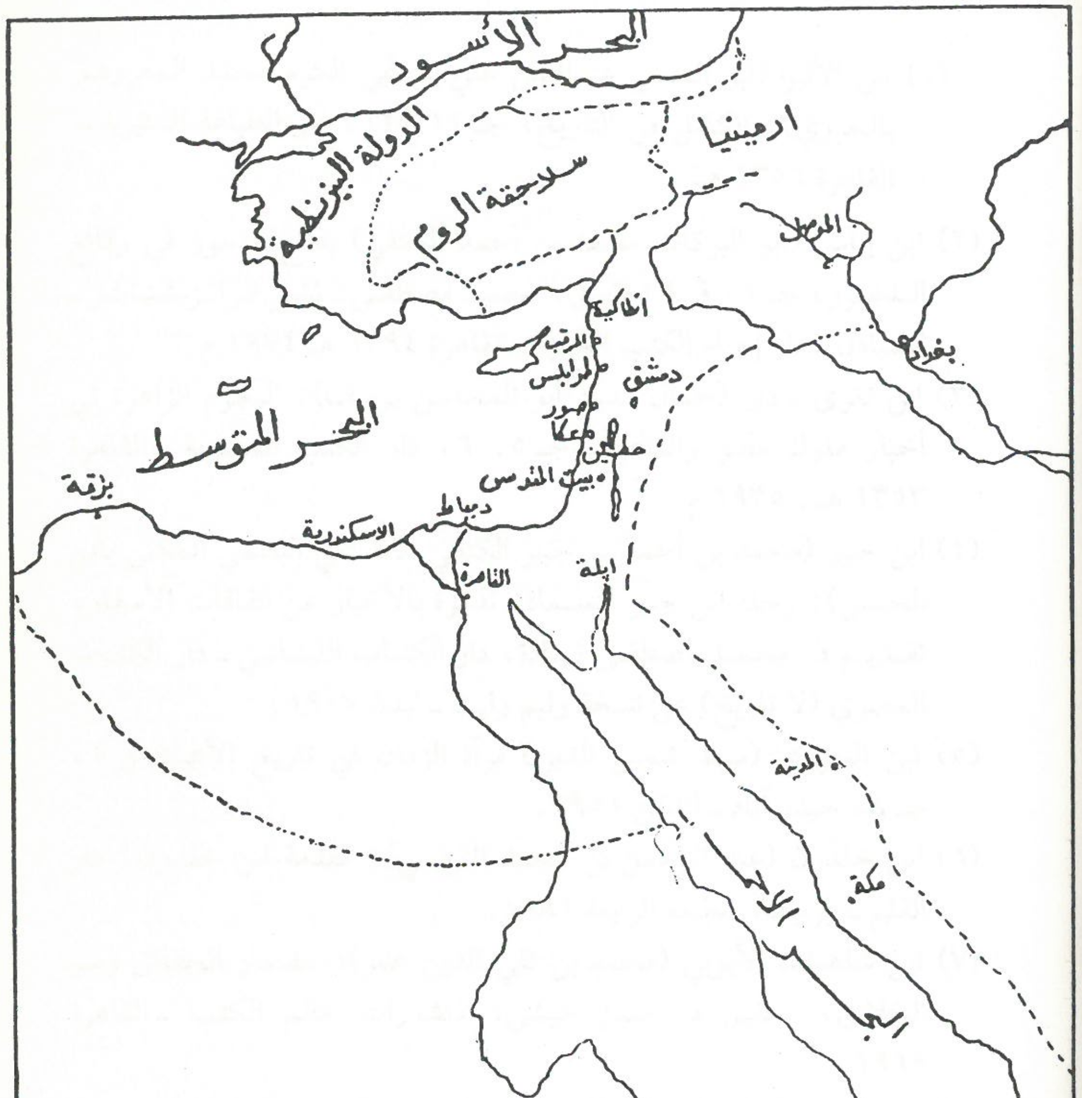

دولة صلاح الدين
١١٧١ — ١١٩٣

مصادر الدراسة

(١) ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد المعروف بالجزري): الكامل في التاريخ، جـ ١١، ١٢، دار الطباعة المنيرية - القاهرة ١٣٥٦ هـ .

(٢) ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي) بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ١، ق ١ تحقيق: محمد مصطفى - نشر فرانز شنايتر - ڤيسبادن - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م.

(٣) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، جـ ٥. ٦، دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م.

(٤) ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي المكنى بأبي الحسين): رحلة ابن جبير المسماة: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تقديم د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري (لا تاريخ) عن نسخة وليم رايت - ليدن ١٩٠٧.

(٥) ابن الجوزي (سبط شمس الدين) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ق ١، جـ ٨، حيدر آباد - الدكن ١٩٥١.

(٦) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد التونسي)؛ مقدمة ابن خلدون، دار القلم - بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨١.

(٧) ابن شاهنشاه الأيوبي (محمد بن تقي الدين عمر): مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشي، منشورات عالم الكتب - القاهرة ١٩٦٨.

(٨) ابن شداد (بهاء الدين): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق د. جمال الدين الشيَّال، الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤.

(٩) ابن العبري (جريجوريوس أبو الفرج بن أهرون): تاريخ مختصر الدول،

تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحاني اليسوعي، نسخة مصورة عن دار الرائد ـ لبنان ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

(١٠) ابن الفرات (ناصر الدين محمد): تاريخ ابن الفرات، جـ ٤، ق ٢، تحقيق: د. أسد رستم، د. قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، المطبعة الأميركية ـ بيروت ١٩٤٢.

(١١) ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل القرشي): البداية والنهاية، جـ ١٢، مطبعة السعادة القاهرة ١٩٣٢.

(١٢) ابن مماتي (الأسعد الوزير الأيوبي): كتاب قوانين الدواوين، طبع على نفقة الأمير عمر طوسون؛ جمع وتحقيق: عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر ١٩٤٣.

(١٣) ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ ١، جـ ٢، جـ ٥، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، دار إحياء التراث القديم ـ القاهرة ١٩٥٣، الطبعة الثانية ١٩٥٧. ونسخة دار الكتب ـ القاهرة ١٩٧٢، ١٩٧٧ تحقيق: د. حسين محمد ربيع، مراجعة وتقديم: د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

(١٤) أبو شامة (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الشافعي): كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ ١، ق ٢، تحقيق: د. محمد حلمي محمد أحمد، مراجعة: د. محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٢، (طبعة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢) وطبعة ١٢٨٧ هـ.

(١٥) أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري): كتاب الاعتبار، حرره: د. فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون ١٩٣٠، طبعة جديدة مصورة عن الدار المتحدة للنشر ـ بيروت ١٩٨١.

(١٦) الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج): الفتح القسّي

في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة (لا. ت).

(١٧) البغدادي (عبد اللطيف): كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ـ طبع حجر ـ القاهرة.

(١٨) البنداري الأصفهاني (قوام الدين الفتح بن علي): سنا البرق الشامي، ق ١ تحقيق: د. رمضان ششن: دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٧١.

(١٩) جوانفيل (جان Jean sire de Joinville) القديس لويس: حياته وحملاته على مصر والشام، تعريب وتعليق: د. حسن حبشي، دار المعارف ـ مصر ١٩٦٨.

(٢٠) الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك): كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨، تحقيق: اولرخ هارمان (Ulrich Haarmann) المعهد الالماني للآثار ـ القاهرة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١م.

(٢١) الزبيدي (المرتضى): ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩م.

(٢٢) الشيزري (عبد الرحمن بن نصر): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة: د. الباز العريني ـ بيروت (لا. ت).

(٢٣) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله): صبح الأعشى في صناعة الانشا جـ ٣، جـ ٥، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٣١ ـ ١٣٣٨ هـ ـ ونسخة دار الكتب المصرية ١٩١٣ ـ ١٩١٥.

(٢٤) المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، نشر وتحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٣٤، الطبعة الثانية ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧.

(٢٥) المقريزي: (تقي الدين) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ ١، جـ ٢ (طبعة بولاق).

(٢٦) النابلسي (عثمان بن ابراهيم): كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، إعداد ومقدمة باللغة الفرنسية: س. بيكر (C. Becker) كلود كاهن (Claude Cahen) (مكان وتاريخ النشر غير مذكوران).

(٢٧) RECUEIL HISTORIENS DES CROISADE - HISTORIENS ORIENTAUX - Tomes I, II, III, IV-V (Académie des inscriptions et Belles - lettres) Paris - Imprimerie National - Second impression 1969.

ملاحظة: اطلعت واستفدت من موسوعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الشرقيون) أربعة مجلدات، بشكل مباشر بالاعتماد على بعض المصادر الواردة فيها، وبشكل غير مباشر بمقارنتها مع المصادر الأخرى التي صدرت كل منها على حدة محققة.

ملحق
من كتاب
«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»
أو
سيرة صلاح الدين الأيوبي

للقاضي

بهاء الدين بن شداد

(٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ، ١١٤٥ ـ ١٢٣٩ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي مَنَّ علينا بالإسلام، وهدانا للإيمان، الجاري على أحسن نظام، وأنعم علينا بشفاعة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وجعل سِيَرَ الأولين عِبْرَةً لأولي الأفهام، وتقلبات الأحوال قاضيةً على كل أمرٍ حاثٍ بالانصرام، كيلا يغترّ ذو حالٍ حسن، ولا ييأس من لعبت بأحواله أكف السقام.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادةً تشفي القلوب من لظى الأوام.

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، الذي فتح للهداية أبواباً يلج المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام، صلّى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة باقية ببقاء الأيام.

وبعد

فإني لما رأيت أيام مولانا السلطان، الملك الناصر جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان، رافع عَلَم العدل والإحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، خادم الحرمين الشريفين، أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي ـ سقى الله ضريحه صوب الرضوان، وأذاقه في مقر رحمته حلاوة نتيجة الإيمان ـ ، وحقّقت وقعات شجعان مالكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان، ورأت العيان من الصبر على المكاره في ذات الله ما قوي بها الإيمان، وعَظُمت عجائبها عن أن تحويها خاطر أو يُجنها جنان، وجلّت نوادرها عن أن تحد ببيان لسان، أو أن تسطر في طرس ببنان.

وكانت ـ مع ذلك ـ من قبيل لا يمكن الخبير بها إخفاؤها، ولا يسع المطَّلعَ عليها إلاّ أن تروي عنه أخبارها وأنباؤها، ومسَّنى من رقّ نعمتها،

وحق صحبتها وواجب خدمتها، ما تعيَّن عليّ به إبداء ما تحققته من حسناتها، ورواية ما علمته من محاسن صفاتها:

رأيتُ أن أختصر من ذلك على ما أملاه عليّ العيان، أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الإيقان، وذلك جزء من كل، وقُلٌّ من جل، ليستدل بالقليل على الكثير، وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير.

وأسميتُ هذا المختصر من تاريخها:

«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»

وجعلته قسمين:

أحدهما: في مولده ـ رحمه الله ـ ومنشئه، وخصائصه، وأوصافه، وأخلاقه المُرضية، وشمائله الراجحة في نظر الشرع الوفية. والقسم الثاني: في تقلبات الأحوال به، ووقائعه وفتوحه، وتواريخ ذلك إلى آخر حياته، قدَّس الله ورحمه.

والله المستعان في الصيانة عن هفوات اللسان والقلم، وجريان الخاطر بما فيه مزلَّة القلم، وهو حسبي ونعم الوكيل.

القِسْم الأول(*)

في ذكر
مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخلاله

رحمة الله عليه

(*) سنكتفي بذكر القسم الأول.

ذكر مولده

رحمة الله عليه

كان مولده ـ رحمه الله ـ على ما بلغنا على ألسنة ثقات تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم ـ في شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة، وذلك بقلعة تَكْرِيت.

وكان والده أيوب بن شاذي ـ رحمه الله تعالى ـ والياً بها، وكان كريماً أريحياً حليماً حسن الأخلاق، مولده بدَوين[1]، ثم اتفق له الانتقال من تَكْرِيت إلى محروسة الموصل، وانتقل ولدُه المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع، وكان والده محترماً مقدَّماً هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي.

واتفق لوالده الانتقال إلى الشام ـ حرسها الله تعالى وأعطي بعلبك، وأقام بها مدة، فنقل ولده المذكور ـ رحمهما الله تعالى ـ إلى بعلبك المحروسة، وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه، حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، فقدَّمه الملكُ العادلُ نور الدين محمود بن زنكي ـ رحمه الله تعالى ـ وعوَّل عليه، ونظر إليه، وقرَّبه وخصَّصه، ولم يزل كلما تقدم قدماً تبدو منه أسبابٌ تقتضي تقديمه إلى ما هو أعلى، حتى اتفق لعمه أسد الدين ـ رحمه الله ـ الحركة إلى محروسة مصر والنهوض إليها.

وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً مبيناً في موضعه إن شاء الله تعالى.

ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية ومـلاحظته للأمور الشرعية

رحمه الله

ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

(١) بالقرب من أذربيجان.

«بُنِي الإِسلامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الله، وإِقَامِ الصَّلاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاة، وَصَوْمِ رَمَضَان، وَالحَجِّ إِلَى بَيْتِ الله الحَرَامِ»:

وكان ـ رحمة الله عليه ـ حَسَنَ العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه، جارية على نمط الاستقامة، موافقة لقانون النظر الصحيح، مرضية عند أكابر العلماء.

وكان ـ رحمه الله ـ قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري ـ رحمه الله ـ عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلِّمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه، رحمه الله.

وأما الصلاة:

فإنه ـ رحمه الله تعالى ـ كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى إنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلاَّ جماعة، وكان إن مرض يستدعي الإمام وحدَه ويكلِّف نفسه القيام ويصلي جماعة، وكان يواظب على السنن الرواتب.

وكان له ركعات يصليها إن استيقظ بوقت في الليل، وإلاَّ أتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيتُه ـ قدَّس الله روحه ـ يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصلاة إلاَّ في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه. وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى.

وأما الزكاة:

فإنه مات ـ رحمه الله تعالى ـ ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة.

وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه ملك

ما ملك ومات، ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلاَّ سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجرماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلِّف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك، رحمة الله عليه.

وأما صوم رمضان:

فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراضٍ تواترت عليه في رمضانات متعددة، وكان القاضي الفاضل قد تولَّى ثبت تلك الأيام، وشرع ـ رحمه الله ـ في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقداراً زائداً على شهر؛ فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراضُ وملازمةُ الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لا يوافق مزاجه، فألهمه الله تعالى الصومَ، بقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها، لأن القاضي كان غائباً؛ وكان الطبيبُ يلومه وهو لا يسمع، ويقول: «لا أعلم ما يكون» فكأنه كان ملهماً ببراءة ذمته، رحمة الله عليه، ولم يزل حتى قضى ما كان عليه.

وأما الحج:

فإنه لم يزل عازماً عليه، وناوياً له، سيما في العام الذي توفي فيه، فإنه صمَّم العزم عليه، وأمر بالتأهب، وعملت الزوادة، ولم يبقَ إلاَّ المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخَّره إلى العام المستقبل، فقضى الله ما قضى؛ وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يحب سماعَ القرآن العظيم، حتى إنه كان يستخبر إمامه، ويشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه.

وكان يستقرىء مَنْ يحضره في الليل ـ وهو في برجه ـ الجزئين والثلاثة والأربعة، وهو يسمع.

وكان يستقرىء ـ في مجلسه العام ـ مَنْ جرتْ عادتُه بذلك الآية الخامسة والعشرين، والزائد على ذلك.

ولقد اجتاز على صغيرٍ بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءَته، فقرَّبه، وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ رقيق القلب، خاشع الدمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبهُ وتدمع عينُه في معظم أوقاته.

وكان ـ رحمه الله ـ شديدَ الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به؛ وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له؛ وإن كان ذلك الشيخُ ممن لا يطرق أبوابَ السلاطين، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه، وسمع عليه؛ تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية ـ حرسها الله تعالى ـ وروى عنه أحاديث كثيرة.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، وكان يستحضرني في خلوته، ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرؤها هو، فإذا مرَّ بحديث فيه عبرة رقَّ قلبُه، ودمعت عينُه.

وكان ـ رحمة الله عليه ـ كثير التعظيم لشعائر الدين، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار، مصدقاً بجميع ما وردت به الشرائع، منشرحاً بذلك صدرُه، مبغضاً للفلاسفة والمعطِّلة والدهريّة ومن يعاند الشريعة، ولقد أمر ولدَه صاحبَ حلب الملكَ الظاهرَ ـ أعزَّ الله أنصاره ـ بقتل شاب نشأ يقال له السهر وردي، قيل عنه إنه كان معانداً للشرائع مبطلاً، وكان قد قبض عليه ولدُه المذكور لما بلغه من خبره، وعرَّف السلطانَ به، فأمره بقتله، وصلبه أياماً، فقتله.

وكان ـ قدَّس الله روحه ـ حَسَنَ الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، ولقد شاهدتُ من آثار ذلك ما أحكيه:

وذلك أن الفرنج ـ خذلهم الله ـ كانوا نازلين ببيت نوبة، وهو موضع قريب من القدس الشريف ـ حرسه الله تعالى ـ بينهما بعض مرحلة؛ وكان السلطان بالقدس، وقد أقام يَزَكاً[1] على العدو محيطاً به، وقد سيَّر إليهم الجواسيس والمخبرين، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته، وتركيب القتال عليه، واشتد خوف المسلمين بسبب ذلك، فاستحضر الأمراء، وعرَّفهم ما قد دَهَم المسلمين من الشدة، وشاورهم في الإقامة بالقدس، فأتوا بمجاملةٍ باطنُها غيرُ ظاهرها، وأصرَّ الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه، فإنها مخاطرة بالإسلام، وذكروا أنهم يقيمون هم، ويخرج هو ـ رحمه الله ـ بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه، وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصرٌّ على أن يقيم هو بنفسه، عِلْماً منه أنه إن لم يُقِم ما يقيم أحدٌ، فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم، جاء مِنْ عندهم مَن أخبر أنهم لا يقيمون إلاّ أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة، وضاق صدره، وتقسَّم فكره، واشتدت فكرته.

ولقد جلستُ في خدمته في تلك الليلة ـ وكانت ليلة الجمعة ـ من أول الليل إلى أن قارب الصبح، وكان الزمانُ شتاءً، وليس معنا ثالث إلاّ الله تعالى، ونحن نقسِّم أقساماً، ونرتِّب على كل قسم بمقتضاه، حتى أخذني الإشفاقُ عليه والخوفُ على مزاجه، فإنه كان يغلب عليه اليُبس، فشفعتُ إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعةً، فقال ـ رحمه الله ـ: «لعلك جاءك النوم»، ثم نهض.

فما وصلتُ إلى بيتي، وأخذتُ لبعض شأني إلاّ وأذن المؤذنُ، وطلع

(1) طلائع الجيش.

الصبح، وكنتُ أصلي معه الصبح في معظم الأوقات، فدخلتُ عليه وهو يمرُّ الماء على أطرافه، فقال:

ـ «ما أخذني النوم أصلاً».

فقلتُ:

ـ «قد علمتُ».

فقال:

ـ «من أين؟».

فقلتُ:

«لأني ما نمتُ، وما بقي وقتٌ للنوم».

ثم شغلنا بالصلاة، وجلسنا على ما كنا عليه، فقلتُ له:

ـ «قد وقع لي واقعٌ، وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى».

فقال:

ـ «وما هو»؟.

فقلتُ له:

ـ «الإخلاد إلى الله تعالى، والإنابة إليه، والاعتماد في كشف هذه الغمة عليه».

فقال:

ـ «وكيف نصنع؟».

ـ فقلتُ:

ـ «اليوم الجمعة، يغتسل المولى عند الرواح، ويصلي على العادة بالأقصى، موضع مَسْرى النبي ـ ﷺ ـ، ويقدِّم المولى التصدق بشيء خفية على يد مَنْ يثق به، ويصلي المولى ركعتيْن بين الأذان والإقامة، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول في باطنك: «إلهي، قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك، ولم يبقَ إلاّ الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل»، فإن الله تعالى أكرم من أن يخيب قصدك.

ففعل ذلك كلّه، وصليتُ إلى جانبه على العادة، وصلى الركعتين بين

الأذان والإقامة، ورأيتُه ساجداً، ودموعه تتقاطر على شيبته، ثم على سجادته، ولا أسمع ما يقول، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعةٌ من عز الدين جُرْديك ـ وكان على اليَزَك ـ يخبر فيها أن الفرنج مختبطون، وقد ركب اليومَ عسكرُهم بأسره إلى الصحراء، ووقفوا إلى قائم الظهيرة، ثم عادوا إلى خيامهم. وفي بكرة السبت جاءت رقعةٌ ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك.

ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا، فذهبت الفرنسيسية إلى أنهم لا بد لهم من محاصرة القدس، وذهب الانكتار وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في هذا الجبل مع عدم المياه، فإن السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه، وأنهم خرجوا للمشورة، ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل، وأنهم قد نصُّوا على عشرة أنفس منهم وحكَّموهم، فأي شيء أشاروا به لا يخالفونه.

ولما كانت بكرة الاثنين، جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة. فهذا ما شاهدتُه من آثار استنابته وإخلاده إلى الله تعالى، رحمه الله.

ذكر عدله

رحمه الله تعالى

روى أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال:

«الولي العادل ظلُّ الله في أرضه، فمن نصحه في نفسه أو في عباده أظلَّه الله تحت عرشه يومَ لا ظلَّ إلاّ ظله، ومَنْ خانه في نفسه أو في عباده خذله الله يوم القيامة، يرفع للوالي العادل في كل يوم عملُ ستين صديقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه». ولقد كان ـ رحمه الله ـ عادلاً، رؤوفاً، رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي.

وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كلُّ

أحد، من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً.

على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات، وكان يجلس مع الكاتب ساعةً، إما في الليل أو في النهار، ويوقِّع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة، رحمة الله عليه.

ولقد كان رؤوفاً بالرعية، ناصراً للدين، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز، عالماً بما فيه، عاملاً به، لا يعدوه أبداً، رحمة الله عليه.

وما استغاث إليه أحدٌ إلاّ وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته، وأخذ بقصته؛ ولقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له: ابنُ زهير علي تقي الدين ـ ابن أخيه ـ، فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم، فما خلّصه إلاّ أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول إنه وكّل القاضي أبا القسم أمين الدين ـ قاضي حماة ـ في المخاصمة والمنازعة، فحضر الشاهدان، وأقاما الشهادة عندي في مجلسه ـ رضي الله عنه ـ بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة، وإنكا الخصم، فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القسم بمساواة الخصم، فساواه ـ وكان من خواص السلطان ـ رحمه الله ـ، ثم جرت المحاكمة بينهما، واتجهت اليمين على تقي الدين، وانقضى المجلس على ذلك، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل، وكان تقيُّ الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولكنه لم يُحابِهِ في الحق.

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل عليه عدله ـ رحمه الله ـ قضية جرت له مع إنسان تاجر يُدعى عمر الخلاطي، وذلك أني كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل علي شيخ حسن تاجرٌ معروف، يسمى «عمر الخلاطي»، معه كتاب حكمي يسأل فَتْحه، فسألتُه:

ـ «مَنْ خِصْمُكَ؟».

فقال:

ـ «خصمي السلطان، وهذا بساطُ الشرع، وقد سمعنا أنك لا تحابي».

قلتُ:

ـ «وفي أي قضية هو خصمُك؟».

فقال:

ـ «إن سُنْقُر الخلاطي كان مملوكي، لم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموالٌ عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستولى عليها السلطان، وأنا مطالبُه بها».

فقلتُ له:

ـ «يا شيخ، وما أقعدك إلى هذه الغاية؟».

فقال:

ـ «الحقوق لا تبطل بالتأخر، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات».

فأخذتُ الكتاب منه، وتصفحت مضمونه، فوجدته يتضمن حِلْيَةَ سُنْقُر الخلاطي، وأنه قد اشتراه فلان التاجر بأرجيش، اليوم الفلاني، من شهر كذا، من سنة كذا؛ وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذَّ عن يده في سنة كذا، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجهٍ ما، وتمَّ الشرطُ إلى آخره.

فتعجبتُ من هذه القضية، وقلتُ للرجل:

ـ «لا يسعني سماعُ الدعوى مع وجود الخصم، وأنا أعرّفه وأعرّفك ما عنده في ذلك».

فرضي الرجلُ بذلك، واندفع، فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرَّفتُه القضية، فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً، وقال:

ـ «كنتَ نظرتَ في الكتاب؟».

فقلتُ:

«نظرت فيه، ورأيتُه متصل الورود والقبول إلى دمشق، وقد كُتب

عليه: كتابٌ حكمي من دمشق، وشهد به على يد قاضي دمشق شهودٌ معروفون».

فقال:

ـ «مبارك، نحضر الرجل ونحاكمه، ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع».

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة، فقلتُ له: «هذا الخصم يتردد، ولا بد أن نسمع دعواه».

فقال:

ـ «أقم عني وكيلاً يسمع الدعوى، ثم يقيم الشهودُ شهادتهم، وأخرِّ فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل ها هنا».

ففعلتُ ذلك، ثم أحضر الرجل، واستدناه حتى جلس بين يديه، وكنتُ إلى جانبه، ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال:

ـ «إن كان لك دعوى فاذكرها».

فحرِّر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً، فأجابه السلطان:

ـ «إن سُنْقُر هذا كان مملوكي، ولم يزل على ملكي حتى أعتقتُه، وتوفي وخلَّف ما خلَّف لورثته».

فقال الرجل: «لي بيِّنةٌ تشهد بما ادعيتُه».

ثم سأل فتح كتابه، ففتحتُه، فوجدته كما شرحه، فلما سمع السلطان التاريخ، قال:

ـ «عندي من يشهد أن سُنْقُر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته».

ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين، فشهدوا بذلك، وذكر القصة كما ذكرها، والتاريخ كما ادعاه، فأبلس الرجل، فقلتُ له:

ـ «يا مولاي، هذا الرجل ما فعل ذلك إلاّ طلباً لمراحم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى، ولا يحسن أن يرجع خائباً للقصد»، فقال:

ـ «هذا باب آخر».

وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة، قد شذَّ عن مقدارها.

فانظر إلى ما في طيّ هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة، والتواضع، والانقياد إلى الحق، وإرغام النفس، والكرم في موضع المؤاخذة، مع القدرة التامة، رحمه الله رحمة واسعة.

ذكر طرف من كرمه

رحمه الله

قال ـ ﷺ ـ: «إذا عثر الكريم فإنَّ الله آخذٌ بيده». وفي الكرم أحاديث.

وكرمُه ـ قدَّس الله روحه ـ كان أظهر من أن يسطّر، وأشهر من أن يذكر، لكن نُنبِّه عليه جملةً، وذلك أنه ملك ما ملك ومات، ولم يوجد في خزانته من الفضة إلاّ سبعة وأربعون درهماً ناصرية، ومن الذهب إلاّ جرم واحدٌ صوري، ما علمتُ وزنه.

وكان ـ رحمه الله ـ يهب الأقاليم. وفتح آمد، وطلبها منه ابن قره أرسلان، فأعطاه إياه.

ورأيته قد اجتمع عنده جمعٌ من الوفود بالقدس الشريف، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق، ولم يكن في الخزانة ما يعطى الوفود، فلم أزل أخاطبه في معفاهم حتى باع قرية من بيت المال، وفضضنا ثمنها عليهم، ولم يفضل منه درهم واحد.

وكان ـ رحمه الله ـ يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال، حذراً أن يفاجئهم مُهِمٌّ، لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه. وسمعتُه يقول في معرض حديث جرى: «يمكن أن يكون في الناس مَنْ ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب». فكأنه أراد بذلك نفسَه، رحمه الله تعالى.

وكان يعطي فوق ما يؤمِّل الطالبُ، فما سمعتُه قط يقول: «أعطينا

لفلان» وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه لمعْطَى بسْطَه لمن لم يُعْطِه شيئاً.

وكان ـ رحمه الله ـ يعطي، ويكرم أكثر مما يعطى، وكان قد عرفه الناس، فكانوا يستزيدونه في كل وقت، وما سمعتُه قط يقول: «قد زدتُ مراراً، فكم أزيد؟».

وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي، وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون، ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم، لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك، وما خدمه قطُّ أحد إلاَّ وأغناه عن سؤال غيره.

وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها فلا تطمع فيها حقيقة أصلاً، وقد سمعتُ من صاحب ديوانه يقول لي:

ـ «قد تجارينا عطاياه، فحصرنا عد ما وهب من الخيل بمرج عكار لا غير فكان عشرة آلاف فرس». ومن شاهد عطاياه يستقل هذا القدر.

اللَّهمّ إنك ألهمته الكرم، وأنت أكرم منه، فتكرَّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

ذكر شجاعته

قدّس الله روحه

روى عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ الله يُحبُّ الشَّجاعة ولوْ على قَتْلِ حيّة».

ولقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ من عظماء الشجعان، قويّ النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، لا يهوله أمر، ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ مرابطاً في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونُجُدُهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلاَّ قوة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلةٍ واحدةٍ منهم نيّف وسبعون مركباً على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلاَّ قوة نفس، ولقد كان ـ رحمه الله ـ يعطي دستوراً في أوائل الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة.

وقد سألتُ باليان بن بارزان، وهو من كبار ملوك الساحل ـ وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح ـ عن عدتهم، فقال الترجمان عنه، إنه يقول:

«كنتُ أنا وصاحب صيدا ـ وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم ـ قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحازرناه، فحزرهم هو بخمسمائة ألف، وحزرتهم أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك، قلت: فكم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب من مائة ألف، وأما بالموت والغرق فلا نعلم، وما رجع من هذا العالم إلاَّ الأقل».

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتب الأطلاب، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو ويجاوره، رحمه الله.

ولقد قرىء عليه جزء من الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت له:

ـ «قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، ولم يُنْقل أنه سُمع بين الصفين، فإن رأى المولى أن يُؤثَر عنه ذلك كان حسناً».

فأذن في ذلك، فأحضر جزءاً، وهناك أحضر مَنْ له به سماع، فقُرىء عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفيْن، نمشي تارة، ونقف أخرى.

وما رأيته استكثر العدو أصلاً، و استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير، تذكر بين يديه الأقسام كلها، ويُرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حِدَّةٍ ولا غضب يعتريه رحمه الله.

ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكؤس والعلم وهو ـ رضي الله عنه ـ ثابت القدم في نفر يسير، قد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم، ويخجِّلهم حتى يرجعوا،

ولم يزل كذلك حتى نُصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقُتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس، ولم يزل ـ رحمه الله ـ مصابراً لهم، وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعفُ المسلمين، فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجد، ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية والأقدار ما كان في مكنونها.

وكان ـ رحمه الله ـ يمرض ويصح، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط، وتتراءى الناران، ونسمع منهم صوت الناقوس، ويسمعون منا صوت الأذان، إلى أن انقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره، قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه.

ذكر
اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿والذين جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا، وإنَّ الله لمع المحسنين﴾. ونصوص الجهاد فيها كثرة.

ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلاَّ في الجهاد أو في الإرفاد، لصدق وبرَّ في يمينه.

ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلاَّ فيه، ولا نظر إلاَّ في آلته، ولا كان له اهتمام إلاَّ برجاله، ولا ميل إلاَّ إلى من يذكره ويحثُّ عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أَهله وأولادَه ووطنه وسكنه وسائرَ ملاذه وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمةُ في ليلة ريّحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج وإلاَّ قتلته، ولا يزيده ذلك إلاَّ رغبة ومصابرة واهتماماً.

وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد أو يذكر شيئاً من

أخبار الجهاد، ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً، جمعتُ فيه آدابه، وكلَّ آية وردت فيه، وكلَّ حديث روى في فضله، وشرحت غريبها؛ وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولدُه الملكُ الأفضل، عزَّ نصرُه.

ولأحكين عنه ما سمعتُه منه:

وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وأعطى العساكر دستوراً، وأخذ عسكر مصر في العوْد إلى مصر، وكان مقدمه أخاه الملك العادل ـ عزَّ نصره ـ فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف ـ حرسه الله تعالى ـ وسرنا في خدمته؛ ولما صلّى العيد في القدس وقع له أنه مضى معهم إلى عسقلان، ويودعهم بعسقلان، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتِّب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة، والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت ـ رحمه الله ـ وودَّع أخاه والعسكر بعسقلان.

ثم سرنا في خدمته على الساحل طالبين عكا، وكان الزمان شتاء عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً شديداً، وموجه كالجبال كما قال الله تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيِّل إليَّ أني لو قال لي قادرٌ إن جزتَ في البحر ميلاً واحداً ملَّكتك الدنيا، لما كنتُ أفعل، واستسخفت رأي من ركب البحر وجاء لكسب دينار أو درهم، واستحسنتُ رأي مَنْ لا يقبل شهادة راكب بحر.

هذا كله خطر لي لعِظَمِ الهول الذي شاهدتُه من حركة البحر وتموجه، فبينا أنا في ذلك إذ التفت إليَّ رحمه الله وقال:

ـ «أما أحكي لك شيئاً؟ قلت: بلى، قال: في نفسي، أنه متى ما يسَّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسَّمتُ البلاد، وأوصيتُ وودَّعتُ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم، أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت».

فعظم وَقْعُ هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان خطر لي، وقلت له:

ـ «ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى منه نيّة في نصرة دين الله تعالى».

فقال: فكيف؟

فقلتُ: أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمرُ هذا البحر وهوله، وأما نصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم.

واستأذنت في أن أحكي ما كان خطر لي، فأذن، فحكيت له وقلت: ما هذه إلاّ نيّة جميلة، ولكن المولى يُسيِّر في البحر العساكر، وهو سور الإسلام ومنعته، فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه.

فقال: أنا أستفتيك: ما أشرف الميتات؟

فقلت: الموتُ في سبيل الله.

فقال: غايةُ ما في الباب أن أموت أشرف الميتات.

فانظر إلى هذه الطويّة ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها، رحمة الله عليه. اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك، وجاهد رجاء رحمتك فارحمه.

ذكر
طرف من صبره واحتسابه
رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ثم جاهدوا واصبروا إنَّ ربَّك من بعدها غفورٌ رحيم﴾.

ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ بمرج عكا، وهو على غايةٍ من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إن كان بالخيمة، وامتنع من

مدِّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرّق على الناس، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رتَّب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدمامل، وأنا أتعجب من ذلك، فيقول: إذا ركبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه غايةٌ ربانية.

ولقد مرض ـ رحمه الله ـ ونحن على الخروبة، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ الافرنج ذلك، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا شيئاً من المسلمين، وهي نوبة النهر، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، فأمر ـ رحمه الله ـ بالثقل حتى يتجهز للرحيل، والتأخر إلى جهة الناصرة، وكان عماد الدين ـ صاحب سنجار ـ متمرضاً أيضاً، فأذن له أن يتأخر مع الثقل، وأقام هو، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا، فركب على مضض، ورتَّب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب، وجعل طرف الميمنة الملك العادل، وطرف الميسرة تقي الدين، وجعل ولديْه الملك الظاهر والملك الأفضل ـ عزَّ نصرهما ـ القلب، ونزل هو وراء القوم يطلبهم، وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه إفرنجي قد أُسر من القوم، فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه بين يديه، بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح، ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً.

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر، ونزل هو قبالتهم على تل مطلٍّ عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت إلى مجال المصابرة، وأن يبيتوا تحت، وتأخّر هو، ونحن في خدمته، إلى قمة الجبل، فضُربت له خيمةٌ لطيفة، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى، حتى لاح الصباح، ثم ضُرب البوق، وركب هو، وركبت الساكر، وأحدقت بالعدو، ورحل العدو عائداً

إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شديدة.

وفي ذلك اليوم قدَّم أولاده بين يديه احتساباً «الملك الظاهر والملك الأفضل والملك الظافر»، وجميع من حضر منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبقَ عنده إلاَّ أنا والطبيب؛ وعارضُ الجيش، والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بُعْد أن تحتها خَلْقاً عظيماً، وليس تحتها إلاَّ واحد يُعَدُّ بخلق عظيم، ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم، وكلما قُتل منهم شخص دفنوه، وكلما جُرح منهم رجل حملوه، حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه، وهم سائرون ونحن نشاهدهم، حتى اشتدَّ بهم الأمر، ونزلوا عند الجسر؛ وكان الإفرنج متى نزلوا إلى الأرض أيس المسلمون من بلوغ غرضٍ منهم؛ لأنهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة.

وبقي ـ رحمه الله ـ في موضعه، والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية، فبتنا على ما بتنا عليه إلى الصباح من مضايقة العدو، ورحل العدو، وسار على ما مضى من القتل والقتال، حتى دنا إلى خيامه، وخرج إليه منها مَنْ أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم.

فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب، وإلى أي غاية بلغ هذا الرجل، اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب، ووفَّقته له، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين.

ولقد رأيتُه ـ رحمه الله تعالى ـ وقد جاءه خبر ولدٍ له بالغ أو مراهق يسمَّى إسماعيل، فوقف على الكتاب ولم يعرّف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينُه.

ولقد رأيتُه ليلةً على صَفَد وهو يحاصرها، وقد قال: «لا ننام الليلة حتى تُنصب لنا خمس مناجيق»، ورتَّب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه، وكنا

طول الليل في خدمته ـ قدَّس الله روحه ـ في ألذّ مفاكهة وأرغد عيش، والرسل تتواصل تخبره بأن قد نُصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن المنجنيق الفلاني كذا حتى أتى الصباح وقد فُرغ منها، ولم يبق إلاَّ تركيب جنازيرها عليها، وكانت من أطول الليالي وأشدِّها برداً ومطراً.

ورأيتُه وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين عمر ـ ابن أخيه ـ ونحن في مقابلة الإفرنج جريدة على الرملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر إلى الصباح ونحن بالرملة وبيننا وبينهم شَوْطُ فَرَسٍ لا غير، فأحضر الملكَ العادلَ، وعَلَمَ الدين سليمان بن جندر، وسابق الدين بن الداية، وعز الدين بن المقدم؛ وأمر بالناس فطُردوا من قريب الخيمة، بحيث لم يبق حولها أحدٌ زيادةً عن غلْوَةِ سَهْم، ثم أظهر الكتاب، ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا، من غير أنْ نعلم السبب، ثم قال ـ رحمه الله ـ والعَبْرَة تخنقه: توفى تقي الدين.

فاشتدَّ بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدتُ إلى نفسي فقلتُ: «استغفروا الله تعالى من هذه الحالة، وانظروا أين أنتم، وفيمَ أنتم، وأعرضوا عما سواه».

فقال ـ رحمه الله ـ: نعم، استغفر الله. وأخذ يكررها، ثم قال: لا يعلم بها أحد.

واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه، ثم استحضر الطعام، وحضر الناس، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو إلى يافا، وعدنا نحن إلى النطرون، وهو مقر ثقلنا.

وكان ـ رحمه الله ـ شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار، وهو صابرٌ على مفارقتهم، راض ببعدهم عنه، وكان صابراً على مُرِّ العيش وخشونته، مع القدرة التامة على غير ذلك، احتساباً لله تعالى.

اللهم إنه ترك ذلك كلّه ابتغاء مرضاتك، فارضَ عنه وارحمه.

ذكر نُبَذٍ من حلمه وعَفْوه

رحمه الله

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿والعافين عن الناس، والله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ ولقد كان حليماً متجاوزاً قليل الغضب. ولقد كنتُ في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكا ـ يَسَّرَ الله فتحها ـ . وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب. ثم ينزل، فيمد الطعام، ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويصلّي، ويجلس خلوة وأنا في خدمته، يقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه؛ ولقد قرأ عليَّ كتاباً مختصراً لسليمان الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة في الفقه.

ونزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض، فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس. وقال: نصلّي وننام. ثم جلس يتحدَّث حديث متضجر وقد أخلى المكان إلاّ ممن لزم، فتقدَّم إليه مملوك كبير محترم عنده، وعرض عليه قصةً لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجران، أخِّرها ساعة.

فلم يفعل، وقدَّم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده، وفتحها بحيث يقرأها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه، فقال: رجل مستحق. فقال: يوقع المولى له. فقال: ليست الدواة حاضرة الآن.

وكان ـ رحمه الله ـ جالساً في باب الخركاة [الخيمة] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها، والدواة في صدرها، والخركاة كبيرة، فقال له المخاطب: هذه الدواة في صدر الخركاة.

وليس لهذا معنى إلاّ أمره إياه بإحضار الدواة لا غير؛ فالتفت ـ رحمه الله ـ فرأى الدواة، فقال: والله لقد صدق.

ثم امتد على يده اليسرى، ومدَّ يده اليمنى فأحضرها، ووقَّع له، فقلتُ: «قال الله تعالى في حق نبيه ـ ﷺ ـ : ﴿وإنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظيم﴾، وما

أرى المولى إلاّ قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ما ضرَّنا شيء، قضينا حاجته، وحصل الثواب.

ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد، ومَن الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الإحسان والحلم، والله لا يضيع أجر المحسنين.

ولقد كانت طراحتُه تُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك. ولقد نفرت يوماً بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته؛ فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم ـ رحمه الله ـ .

ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس الشريف وهو كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان عليه وهو يبتسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك، فما تركني.

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع، ويلقى ذلك بالبشر والقبول، وهذه حكايةٌ يندر أن يُسطَّر مثلها:

وذلك أنه كان قد اتجه أخو ملك الإفرنج ـ خذلهم الله ـ إلى يافا، فإن العسكر كان قد رحل عنهم، وبَعُدَ وتراجع إلى النطرون، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجدّ وثلاث معتادة، وجمع ـ رحمه الله ـ العسكر، ومضى إلى قيسارية يلتقي نجدتهم، عساه يبلغ منا غرضاً، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافا ذلك، وكان بها الانكتار، ومعه جماعة، فجهَّز معظم من كان عنده في الركب إلى قيسارية، خشية على النجدة أن يتم عليها أمر، وبقي الانكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده ـ رحمه الله ـ عنهم، وبعد العسكر.

ولما وصل ـ رحمه الله ـ قيسارية ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به، وعلم أنه لا ينال منهم غرضه، سرى من ليلته من أول الليل إلى آخره، حتى أتى يافا صباحاً، والانكتار في سبعة عشر فارساً وثلاثمائة راجل، نازلاً خارج البلد في خيمة له، فصبَّحه العسكر صباحاً، فركب الملعون، وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب، وثبت بين يدي

العسكر، ولم يدخل البلد. فاستدار العسكر الإسلامي بهم إلاَّ من جهة البلد، وتعبى العسكر تعبية القتال. وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازاً للفرصة. فأجابه بعض الأكراد الأمراء بكلام فيه خشونة، حاصِلُه تعتب، لعدم التوفير في إقطاعه. فعطف ـ رحمه الله ـ عنان فرسه كالمغضب، لعلمه أنهم لا يعلمون في ذلك اليوم شيئاً. وتركهم وانصرف راجعاً. وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن قُلِعت. وانفضَّ الناس عن العدو متيقنين أن السلطان في ذلك اليوم ربما صلب وقتل جماعة.

وقد حكى لي ولدُه الملك الظاهر ـ أعزَّ الله أنصاره ـ أنه خاف منه في ذلك اليوم حتى أنه لم يتجاسر أن يقع في عينيه، مع أنه حمل في ذلك اليوم وأوغل حتى منعه ـ رحمه الله ـ ولم يزل سائراً حتى نزل بيازور، وهي مرحلة لطيفة، فضربت له خيمة لطيفة هنالك، ونزل بها، ونزل العسكر في منازلهم تحت صوانات لطيفة كما جرت العادة في مثل ذلك الوقت، وما من الأمراء إلاَّ من يرعد خيفة، ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه، قال: ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعاني.

قال: فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة، فقال: اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً.

قال: فسرى عنّي ما كنت أجده، وطلبت الأمراء فحضروا وهم خائفون، فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور، وانصرفوا عنه على عزم الرحيل كأن لم يجرِ شيء أصلاً.

فانظر إلى هذا الحلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان، ولا يحكى عمَّن تقدَّم من أمثاله، رحمه الله عليه.

ذكر محافظته على أسباب المروءة

قدّس الله روحه

قال النبي ـ ﷺ ـ : بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارِمَ الأخْلاق.

وكان ـ ﷺ ـ إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو

التارك الذي يبدأ بذلك. ولقد كان السلطان كثير المروءة، نديَّ اليد، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، ولا يخاطبه بشيء إلاَّ وينجزه.

وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً. وقد وفد عليه البرنس ـ صاحب أنطاكية ـ فما أحسَّ به إلاَّ وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، عند منصرفه من القدس إلى دمشق، عرض له في الطريق، وطلب منه شيئاً، فأعطاه العمق، وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل، وهو سنة أربع وثمانين.

ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام، فذكر له طرفاً من محاسنه، وحثّه عليه.

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمَّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده، وينالهم من إحسانه.

ولقد مرَّ بنا سنة أربع وثمانين وخمسمائة رجل جمع بين العلم والتصوُّف، وكان من ذوي الأقدار، وأبوه صاحب توريز ـ كان ـ فأعرض هو عن فن أبيه، واشتغل بالعلم والعمل، وحجّ، ووصل زائراً لبيت الله المقدس، ولما قضى لبانته منه، ورأى آثار السلطان ـ رحمه الله ـ فيه، وقع له زيارته، فوصل إلينا في المعسكر المنصور، فما أحسستُ به إلاَّ وقد دخل عليَّ في الخيمة، فلقيته ورحَّبتُ به، وسألته عن سبب وصوله، فأخبرني بذلك، وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة، فعرَّفتُ السلطان ـ رحمة الله عليه ـ تلك الليلة وصول هذا الرجل، فاستحضره، وروى عنه حديثاً وشكره عن الإسلام، وحثّه على الخير، ثم انصرفنا، وبات عندي في الخيمة، فلما صلّينا الصبح، أخذ يودّعني، فقبَّحتُ له المسير بدون وداع السلطان. فلم يلتفت ولم يَلْوِ على ذلك، وقال: قد قضيتُ حاجتي منه، ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته. وانصرف من

ساعته. ومضى على ذلك ليالٍ، فسأل السلطانُ عنه، فأخبرتُه بفعله، فظهر عليه آثار الغضب، كيف لم أخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل، وينصرف عنا من غير إحسان يمسُّه منّا؟.

وشدَّد النكير عليَّ في ذلك، فما وجدتُ بداً من أن أكتب كتاباً إلى محيي الدين ـ قاضي دمشق ـ كلَّفتُه فيه السؤال عن حال الرجل. وإيصال رقعة كتبتُها إليه طيّ كتابي، أخبره فيها بإنكار السلطان رَواحَه من غير اجتماعه به، وحسَّنتُ له فيها العود، وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك، فما أحسست به إلاَّ وقد عاد إليَّ فكتبتُ رقعة وأعلمته بذلك، فكتب إليَّ يقول: تحضره معك، ففعلتُ لك، فرحَّب به، وانبسط معه، واستوحش له، وأمسكه أياماً، ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركباً لائقاً، وثياباً كثيرة، يحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه.

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابه، بحيث أنه ظهرت عليه إمارات الخوف والجزع، فقال له الترجمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنتُ أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه، أيقنتُ أني ما أرى إلاَّ الخير فرقَّ له، ومنَّ عليه، وأطلقه.

ولقد كنتُ راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليَزَكيَّة، ومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء، متواترة الدق على صدرها، فقال اليَزَكي: إن هذه خرجت من عند الإفرنج، فسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها. فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها، فقالت: اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي، وسرقوا ابنتي، وبتُّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار، فقيل لي: الملك هو رحيم، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه، فأخرجوني إليك، وما أعرف بنتي إلاَّ منك.

فرقَّ لها، ودمعت عينه، وحرَّكته مروءته، وأمر مَنْ ذهب إلى سوق العسكر، يسأل عن الصغيرة: مَن اشتراها، ويدفع له ثمنها، ويحضرها وكان

قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلاَّ أن وقع نظرها عليه، فخرَّت إلى الأرض تعفِّر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها، وهي ترفع طرفها إلى السماء، ولا نعلم ما تقول، فسُلِّمت ابنتُها إليها، وحُملت حتى أُعيدت إلى عسكرهم.

وكان ـ رحمه الله ـ لا يرى الإساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الخيانة، ولقد قُلب في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس، فما عمل بالنواب شيئاً سوى أن صرفهم من عملهم، لا غير.

ولقد دخل عليه البرنس أرناط ـ صاحب الكرك ـ مع ملك الإفرنج بالساحل لما أسرهما في واقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، والواقعة مشهورة تجيء مشروحة في موضعها ـ إن شاء الله تعالى ـ وكان قد أمر بإحضارهما، وكان أرناط ـ هذا اللعين ـ كافراً عظيماً جباراً شديداً، وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر ـ حرسها الله تعالى ـ حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة ـ فغدرها وأخذها، ونكَّل بهم، وعذَّبهم، وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة وذكروا له حديث الهدنة، فقال: قولوا لمحمدكم يخلصكم.

فلما بلغه ـ رحمه الله ـ ذلك عنه، نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه؛ فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم، قوي عزمه على قتله ـ وفاء بنذره ـ فأحضره مع الملك، فشكا الملك العطش، فأحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه، ثم ناوله أرناط، فقال السلطان للترجمان:

قل للملك: أنت الذي سقيته، وأما أنا فما أسقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي. فقصد ـ رحمه الله ـ أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أؤذيه.

ثم ضرب عنقه بيده وفاء بنذره. وأخذ عكا، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير، وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله.

هكذا بلغني على ألسنة جماعة، لأني لم أحضر هذه الواقعة.

وكان حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيِّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضرُه منه ما لا يسمع من غيره. وكان حسن الخلق يسأل الواحدَ منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله.

وكان طاهر المجلس، لا يذكر بين يديه أحد إلاَّ بالخير، وطاهر السمع، فلا يحب أن يسمع من أحد إلاَّ الخير، وطاهر اللسان، فما رأيتُه ولع بشتم قط، وطاهر القلم، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط.

وكان حسن العهد والوفاء، فما أحضر بين يديه يتيم إلاَّ وترحَّم على مخلفيه، وجبر قلبه، وأعطاه خبز مخلفه، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلَّمه إليه، وإلاَّ أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلَّمه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها.

وكان لا يرى شيخاً إلاَّ ويرقُّ له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقر رحمته ومكان رضوانه.

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه، اقتصرت عليها خوف الإطالة والإسآم، وما سطَّرت إلاَّ ما شاهدتُه، أو أخبرني الثقة به وحقَّقتُه؛ وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له، وهو يسيرٌ مما اطلع عليه غيري ممَّن طالت صحبته، وقدمت خدمته، ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال.

فهرس الموضوعات

الإهداء ٥

مقدمة ٧

الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ٩

ملحق كتاب «محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو الأوزاعي» ٣٧

شخصية السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ٧٥

ملحق كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ١٢٣

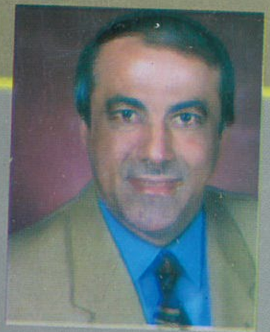

الدكتور حسّان حلّاق في سطور

- مواليد بيروت - الطريق الجديدة.
- أستاذ التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية.
- أستاذ التاريخ في جامعة بيروت العربية.
- أستاذ سابق في كلية الإعلام - الجامعة اللبنانية.
- عضو مجلس أمناء وقف البر والإحسان في بيروت.
- عضو المجلس الأعلى لجامعة بيروت العربية.
- عضو سابق لمجلس جامعة بيروت العربية.
- نائب رئيس مجلس أمناء المركز الإسلامي للتربية في بيروت.
- عضو المجلس العلمي لكلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية.
- أستاذ مشرف على رسائل وأطروحات الماجستير والدكتوراه في الجامعات العاملة في لبنان.
- شارك في ندوات ومؤتمرات علمية محلية وعربية ودولية.
- ترجمت بعض مؤلفاته إلى اللغات: الألمانية والانجليزية والتركية.
- اعتمد المؤتمر العلمي الذي عقد في برلين عام ١٩٨٨ والندوات العلمية الألمانية على مؤلفاته لفهم تاريخ لبنان السياسي والاقتصادي والاجتماعي، كما اعتمد المؤتمر العلمي الذي عقد في لندن عام ١٩٩١ على تلك المؤلفات والبحوث.
- نال شهادة تقدير عام ١٩٩٢ من جامعة الاسكندرية على جهوده العلمية.
- نال ميدالية وشهادة المؤرخ العربي عام ١٩٩٣ من اتحاد المؤرخين العرب.
- له العديد من المؤلفات التاريخية والسياسية والحضارية في ميادين الدولة العثمانية، لبنان، بيروت، فلسطين، شخصيات إسلامية، حضارة إسلامية، اشتهر عن د. حلاق بأنه قام عبر سنوات بتصحيح جوانب هامة من التاريخ العثماني وتاريخ بيروت ولبنان وفلسطين.
- ساهم مع رجال بررة من مجلس أمناء وقف البر والإحسان وجامعة الاسكندرية بإنشاء كلية الصيدلة وكليتي الطب وطب الأسنان في جامعة بيروت العربية.
- ساهم إسهاماً فاعلاً في نشر تراث بيروت، وهو أول من عمل ونشر وثائق وسجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة.
- رئيس وعضو للجان الثقافية في عدد وفير من الجمعيات والهيئات الثقافية والاجتماعية في بيروت.